



الأبحاث والدراسات

مركز تحقيقات كالمپویر علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الحماسة في شعر الشريف الرضي

بقلم

محمد جميل حلس

مدير الثقافة العام - وزارة الاعلام
بغداد

وتخالجه مطامح ، ولكنه يصطدم بالواقع الاليم ، والزمان المعاكس ، فينقل ثورته الساخطة الحزينة التي لم تحقق له الطموح المادي ، الى شعره . ثم يمزجها بانتفاخ ذاته مفتخرا بالنسب الشامخ معتزا بالكبرياء والانفة . ومن هنا طفى على شعره نفس من الفخر تغلب عليه الحماسة ، ويلونه السخط والحزن والشكوى ، ويتجلى فيه الشريف شاعرا في صورة بطل ، تلمحه في أكثر اغراض شعره نائرا متوثبا ، يستقل ظهور الجياد ، ويخوض الفمرات ، ويستصرخ فتياهه الشعث الملثمين ، حتى كأنه في حرب ضروس ، وحتى يمكننا القول ان قصائده في الكثير من اغراض المدح والثناء والفخر والهجاء والشكوى ، وحتى الغزل ، لا تكاد تفارقها روح الحماس الذي يبثه الشاعر في تضاعيف قصائده ، ولا يستطيع الخلاص منه لانه أصبح جزءا من أزمة وجوده ، ينفثه بشكل عفوي كلما وجد الى ذلك سبيلا .

المقدمة الحماسية في شعر الرضي :

اعتاد الشعراء العرب القدامى ان يستهلوا قصائد المدح بالنسيب وذكر الاطلاع تعبيرا عما في نفوسهم من حنين وشوق ، واستعادة لما في مخيلتهم من ذكريات ثم ترسخت هذه العادة عندهم على مر الزمن ، حتى أصبحت المقدمة الظلية تقليدا فنيا يمهّد به الشاعر للتخلص الى غرضه الاصلي ثم حاول الخروج عليها اكثر من شاعر ، واستعاض عنها بعضهم بمقدمات اخرى (١) ثم توج الحملة عليها أبو نواس بروح من السخرية التي خرج بها

تمهيد :

تمثل نفس الشريف الرضي في قلقها ، وثورتها ، وتمزقها ، انعكاسا اصيلا لصورة عصر اضطربت فيه المقاييس والقيم الاجتماعية ، وعبثت به الفوضى السياسية ، وتملكته مشاعر الحيرة والرعب والخيبة ، حتى أصبح المخلصون ، والمتعلقون بالمثل ، يعيشون في صراع نفسي ، بين ما يؤمنون به ويتطلعون اليه ، وبين متطلبات العيش في واقع تردت فيه المثاليات ، وانهارت القيم ، وقلبت الموازين .

ويضع الرضي في اتون هذا الصراع عوامل كثيرة منها - عدا ما تقدم - ولادته في بيت علوي يسمو بنسبه الى الامام علي ، ويضخم في نفسه الشعور بعزة النسب وعلو المنزلة ، كما يثير فيها الطامح الى العلا ، بل المطالبة بالحق الشرعي المكتسب ، الذي هو الخلافة .

ثم يفتح الشريف عينيه على الحياة ، وهو في مقتبل العمر ، لتحل به نكبة توقظ في نفسه مشاعر الالم ، والحقد والثورة ، تلك هي اعتقال والده في سجن القلعة ، ومصادرة املاكه . وينظر الشريف الى من حوله فاذا الاصدقاء خصوم ، واذا الاقارب وشاة منافسون ، واذا البيت الرفيع الذي كان يظله ، والحياة التي كان يحياها ، تتحول بسرعة مذهلة الى واقع بائس مرير ، يعمق الجرح ، ويجسم المأساة ، ويضع الشاعر الشاب على طريق أزمة نفسية لاتكاد تفارقه في رحلة العمر ، ثم ينظر الى نسبة الضارب الى اكرم فرع ، ويستعيد ذكرى امجاد آبائه وبطولاتهم وكوارثهم ، ويعود الى واقعه نفسه ، فيثور فيه عصب يشعره بالعزة والانفة ، ويدعوه الى عظمائم الامور ، فتداعبه احلام ،

(١) القصائد الهاشميات : الكميت بن زيد - مطبعة الموسوعات - مصر ، ص ١٥ .

عن حدود الفن الى السخرية بالتراث والامة(٢)، ولعله كان يصدر في ذلك عن نزعة شعوبية حاكمة وجدت لها متنفساً من خلال الدعوة الى التجديد . وجاء المتنبي فأنحى باللائمة على الشعراء ، وسخر منهم في قوله(٣) :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم

أكل فصيح قال شعرا متيسم

ثم حاول الافلات من هذا التقليد غير مرة ، ولكنه لم يستطيع ان يتحرر منه كلياً .

ولج الشريف الرضي عالم الشعر بكل حواسه ، وفي نفسه ثورة جبارة ، وسخط في وجه الزمان والناس ، منتفضاً كالفارس الجريح وثاباً الى المعالي ، مترسماً خطى استاذ المتنبي في طمأحه ، وتحديقه بعيني نسر الى عظام الامور ، فشغله هذا الانطلاق والتوثب عن النسيب ، وعن المقدمات الطللية في الكثير من قصائده ، واستعاض عن ذلك بالحديث عن فلسفته في الحياة والموت والاصدقاء وذم الدنيا ، والتأسي بمن مضى من الغابرين(٤) . كما استهل البعض الآخر بالمقدمات الحماسية انسجاماً مع ثورته التي لا تكاد تفارقه ، وتنفساً عما كان يداخله من مشاعر ازاء بعض المواقف سواء اكان الغرض مدحاً ، أم رثاء ، أم غير ذلك ، فلقد اعتاد في شعره ان يستهل قصائده بذكر الناقة والبيداء وصهوات الجياد والسيف والدم وقعقة الاسنة ونخوة الشوس البهليل ، ثم يعرج على التخلص الى الغرض الذي انشئت له القصيدة ، كما يفعل الشعراء في استهلال قصائدهم بالفزل والنسيب ، ولا تكاد تستعرض الصفحة او الصفحتين من ديوانه الا وتجد تلك الروح المتحمسة الوثابة ماثلة بين عينيك(٥) .

والمقدمة الحماسية في قصيدة الرضي ليست مقحمة عليها اقحاماً ، وانما هي فلذة حية ، ومراة صادقة ترتسم عليها صورة نفسه ، ونحس اذا تقصيناها في قصائد مختلفة من اطوار حياته ، نجدها تمثل الخط البياني لاحساس الشاعر ، وتتلون بمشاعر الالم ، او الفرحة الفامرة ، او الخيبة الممزوجة بالحق تدبعا للموقف ، وانسجاماً مع نوع المعاناة .

ففي سنة (٣٧٥ هـ) مدح صاحب بن عباد ، واستهل قصيدته بمقدمة حماسية ، يصور فيها نفسه غلاماً يغور شوقه وينجد ، ويعبر عن ابائه الذي يقيم الدهر ويقعده ، وعن صبره على الايام والشدائد ، وخوضه الليالي بحسام مجرد ، يلثم بهمة وعزيمته ، مازجاً ذلك كله بأنه قلب يملؤه الهم ، وتتصعد منه الزفرات ، مشترطاً على ممدوحه الذي يخطب وده على البعد ، ان يكون « الحسام المهندا »(٦) وهذا يعني ضمناً ، دعوة من الشريف الى ان يكون صاحب نصيره ومعينه . وقد مر علينا ان الرجلين تبادلا عواطف الود ، وان صاحب اعجب بالشريف وبشعره ، فطلب انتساخ ديوانه ، وان الشريف هزه هذا الموقف فمدح صاحب بن عباد مكاتبة(٧) . وجدير بنا ان لا ننسى هنا رابطة المعتد التي تشده الى الممدوحه ، ولعلها من جملة العوامل التي جعلت الرضي يهجم على قصيدته بمثل هذه المقدمة الحماسية التي يقول فيها(٨) :

إباء أقام الدهر عني واقعدا

وصبر على الايام اثنى وابعدا

وقلب تقاضاه الجوانح انة

اذا راح ملأنا من السهم اوغدا

اخوذ على أيدي المطامع بالنوى

نزاعاً وما يزداد إلا تبعدا

اذا ركب آماله ظهر نية

رايت غلاماً غائر الشوق منجدا

غذي زماع لا يمل كأنما

يرى الليل كورا والمجرة مقودا

يلثم عرنين الحسام بهمة

تكلفه خوض الليالي مجردا

امارة الحزن ، وانة القلب المغم بالسهم التي تمتزج بهذا الحماس ، فلعل مما يفسرها كون الرضي مازال في دور النكبة التي حلت به حين اقتيد والده الى سجن القلعة وصودرت املاكه(٩) وهذه القصيدة من بواكير شعر الرضي ، وهي تذكرنا بابي الطيب المتنبي وابي تمام في اكثر من مكان(١٠) .

وفي سنة (٣٧٦ هـ) مدح أبا نصر سابور بن أردشير حين قدومه الى بغداد مع شرف الدولة ،

(٦) ديوان الشريف : ١/١ البيت الثالث .

(٧) ديوان الشريف : ٢٨٥/١ .

(٨) نفس المصدر : ٢٨٠/١ .

(٩) انظر نفس المصدر : ٢٩٤/١ ، ٣٠٥ .

(١٠) ديوان الشريف : ٢٨١/١ البيت (١٢) و ص ٢٨٢ البيت

(٩) و ص ٢٨٢ .

(٢) ديوان ابي نؤاس : دار صادر - بيروت : ص ١٨١ ، ص ٣٦٦ ، سنة ١٩٦٢ .

(٣) ديوان المتنبي : ٦٩/٤ ، شرح البرقوقى - المكتبة التجارية

(٤) ديوانه : ٢١/١ .

(٥) الغري : محمد رضا آل كاشف الغطاء - السنة الاولى -

العدد الثامن : ص ١٦٨ .

وهذه السنة تمثل تحولا نفسيا في حياة الشريف ، وفي شعره ، فلقد زالت الغمة بزوال الشبح الرهيب - عضد الدولة - الذي كان السبب الاول في نكبته ، ثم اعقب ذلك اطلاق سراح والده ، ودخوله بغداد ، مما كان له ابعاد الاثر في توجيه شعره ، وتفتيح قريحته باستقبال الهناء ، فاذا بمطلع مقدمته الحماسية فرحة غامرة يطلقها من اعماقه ، واذا به يتغنى بمطمحه في نبرة يملؤها التعجب ، ثم يرسل الحكمة على طريقة المتنبي ، ويديج بها حماسه فتمتزجان بنشيد ثائر يقذف بنفسه من خلاله في الفارة الشعواء ، ويثب بعزمه مع حنين النيب ، يملؤه التحفز والترقب ويقول (١١) :

ما يصنع السر بالجرد السراحيب
إن كان وعد الاماني غير مكذوب (١٢)
لله امر من الايام اطلبه
هيهات اطلب امرا غير مطلوب
لا تصحب الدهر الا غير منتظر
فالهم يطرده قرع الظنايب (١٣)
واقذف بنفسك في شعواء خابطة
كالسيل يعصف بالصوان واللوب (١٤)
إن حنت النيب شوقا وهي واقفة
فان عزمي مشتاق الى النيب
او صارت البيض في الأغمار آجنة
فانما الضرب ماء غير مشروب (١٥)
متى اراني ودرعي غير محببة
أجر رمحي ، وسيفي غير مقروب

وكانت مواقف الشريف امام والده تثير في نفسه كل معاني البطولة . فقد كان هذا الوالد ، فارسا شجاعا حكيما ، وزعيما يحظى بشعبية واسعة اهلته لان يكون رجل الساعة في العصر البويهي ، فخشي الحكام ، وخطبوا وده ، ورأى فيه الشريف بديلا لحلمه في الزعامة والرياسة فاذا مدحه ثار وتحمس ، وكأنه بذلك يعرض عن فراغ يعانيه ، ويسري عن أزمة نفسية حادة ، تجد لها متنفسا في وصفه لاحلام البطولة في شخصية أبيه الذي وجد فيه ذاته ، وعوض عما أفقده في

الواقع المادي ، وهكذا فعل معه حين مدحه وهناه بعيد الفطر سنة (٣٧٧ هـ) حيث استهل قصيدته بمقدمة حماسية ، تبدي فيها ، وارسل الحكمة ، وعرج على المتنبي وقال (١٦) :

لغام المطايا من رضاك أعذب
ونبت الفيا في منك أشهى وأطيب (١٧)
ومالي عند البيض يا قلب حاجة
وعند القنا والخيل والليل مطلب
أحب خليلي الصفيين صارم
وأطيب داري الخباء المنضب
ذليل لريب الدهر من كان حاضرا
وحرب لدى الايام من يتفرب
ولي من ظهور الشدقميات مقعد
وفوق متون الاحقيات مركب (١٨)
لثامي غبار الخيل في كل غارة
وثوبي العوالي والحديد المذرب (١٩)
اساكت بعض الناس والقول نافع
وأغمد عن اشياء والضرب انجب
وأطمعني في العزاني مغامر
جري على الأعداء والقلب قلب (٢٠)
وعندي مما خول الله سابح
واسمر عسال وابيض مقضب (٢١)

والمتبع للشريف الرضي يلمس بوضوح انه « كان في شعره الاول يحاكي المتنبي في افكاره ، وصوره ، ونفسيته . وقلل من ذلك فيما بعد ، وان بقي خاضعا لفلسفته في الحياة والناس » (٢٢) .

ثم مدح الرضي والده بقصيدة أخرى وهناه بعيد الفطر سنة ٣٨١ هـ واسهب فيها بمقدمة حماسية معبرا عن ثورته وسخطه وتعلقه بأذيال المجد مازجا فيها بين الثورة والالم والشكوى من

- (١٦) الديوان : ٧٩/١ دار صادر .
- (١٧) اللغام : زيد افواه الابل .
- (١٨) الشدقميات : النياق المنسوبة الى شديم : فحل للنعمان بن المنذر . والاحقيات : افراس منسوبة الى لاحق وهو فرس عتيق .
- (١٩) المذرب : السموم . وقد الم يقول المتنبي : يريد بك الحساد ما الله دافع
- وسمر العوالي والحديد المذرب
- ٢٠٨/١ .
- (٢٠) القلب : البصير بتقلب الامور .
- (٢١) السابح : الفرس . المقضب : الشديد القطع .
- (٢٢) الموسوعة العربية البصرة : ص ١٠٨٢ اشراف محمد شفيق غريال - القاهرة - دار القلم - ١٩٦٥ .

- (١١) ديوان الشريف : ٦١/١ .
- (١٢) السراحيب : الطويلة . الواحد سرحوب .
- (١٣) الظنايب : الواحد ظنوب . وهو عظم الساق ومعنى قرع الظنايب : الحد في الامور . وقد الم في هذا البيت يقول المتنبي : لا تاق دهره الا غير مكرث .
- (١٤) الشعواء : الفارة المتفرقة . واللوب : العطش .
- (١٥) آجنة من : آجن الماء ، اذا تغير لونه وطعمه .

الزمان نافرًا من موارد الذل مصورا نفسه على اشد ما يكون الرجل الابي المتعيف حيث يقول :- (٢٣)

حلفت بها صيد الرؤوس سوام
طوال الذرى يمددن كل زمام
بكل غلام حرم النوم هزيمة
الى بلد نائي المزار حرام
لاستمطرن العز نفساً مريفة
ورود علاء أو ورود حمام (٢٤)
واستنزلن المجد من قذائفه
ولو كان اعلى يذبل وشمام (٢٥)
مللت مقامي غير شكوى خصاصة
وانني لامر ما امل مقامي
نزاعاً عن الدار التي انا عندها
كثير لباتات طويل غرام
صريع هموم يحسب الناس انني
لما اخذت مني ، صريع مدام
نوائب ايام نسر خصائي
مغالبة حتى عرقن عظامي (٢٦)
ودون ولوج الضيم في ذوابل
طوال بايدي منجبين كرام
وان زماني يوم يحرق نابه
اعاذمه حتى يمد عدامي (٢٧)
وكم يستفز الذل قلب ابن همة
له امل نائي المدى مترام
يداذ عن الماء الذي فيه ربه
ويرمي الى الفدران مقلة ظامي
وتعرض غرات العلى وهو كاتع
فيلحظها شزراً بعين قطامي (٢٨)
ولست براض عن منازل جمعة
امر بها في الارض مر لمام
سوى منزل حصباء ارضي بجوه
نجوم ، واطلال الفمام خيامي
فذاك مكاني إن اقمتم بمنزل
والا ففي ايدي الطلاب زمامي

خفيف على ظهر الجواد تسري
ثقل على هام الرجال قيامي

على ان المقدمة الحماسية في شعر الرضي
لا تقتصر على ما استشهدنا به . فهي موجودة في
اماكن اخرى استهل بها قصائد المدح (٢٩) . وهي
موجودة كذلك في مقدمات قصائد في غير المدح ،
كالثناء مثلاً (٣٠) . واذا كان قد استعاض بها في
بعض قصائده عن المقدمة الطللية ، فهي ليست في
شعره بديلاً عنها ، اي انها لم تكن تقليداً اعتاده
الشاعر ليفتح بها بعض قصائده ، وانما كانت حاجة
نفسية ، واحتباساً اصيلاً لا يتصنعه ولكنه يعتلج
في صدره ، يهجم على مشاعره فيقذفه عن طريق
الشعر .

القصيدة الحماسية في شعر الرضي :

وديوان الشريف الرضي لا يخلو من بعض
القصائد التي تكاد تمثل وحدة متكاملة حماسية ،
واغلبها وصف حربي ، تطفئ عليه الحماسة ، لانه
وصف نابع من اعمق نفس ثائرة ، تمتزج
بالاحداث . ولكن هذا الوصف ، يبقى في اكثره
وصفاً حريباً حماسياً ، لا لمعارك معينة ، كما فعل
ابو تمام والمتنبي ، وانما هو عند الرضي ، وصف
حربي حماسي ، يقدم فيه الشاعر « النموذج » او
« المثال » لجو المعركة بسلاحها وآلاتها وخيولها
وفرسانها ، ثم يرسم فارسه « النموذج » ويعبر
عن تصوره للثورة التي يتمناها ان تتحقق ، كما انه
يصور نفسه بطلاً ثائراً ، يخوض الفمرات ، ويصارع
الاهوال ، ولعل من اروع قصائده في هذا الباب
« الحائية » التي يعتبرها البعض « نشيد الفتوة
العربية » (٣١) لما فيها من جذوة حماس متقد ، ومن
رجولة ثائرة مصممة ، تقول : (٣٢)

نبهتهم مثل عوالي الرماح
الى الوغى قبل نوم لاصباح
فوارس نالوا المنى بالقنا
وصافحوا اغراضهم بالصفاح
لغارة سامع انبائها
يفص منها بالزلال القراح

(٢٣) الديوان : ١٩/٢ - ٢٠ ، صادر .

(٢٤) المريفة : الطالبة الورود .

(٢٥) القذفات : الواحدة قذفة . ما اشرف من رؤوس الجبال .

(٢٦) نسر : من نسر البازي الطائر الطائر : تنف لحمه
بمنصره .

(٢٧) حرق نابه : حكه حتى سمع له صرير . عاذمه : باده
اللوم او الشتيمة .

(٢٨) الكانع : المتشجج . القطامي : الصقر .

(٢٩) انظر ديوانه : ٥١/١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٢٦٩ و ٢٩٩/٢ .

٤٠٨ ، ٤١٩ .

(٣٠) نفس المصدر : ٨٧/١ و ٤٩٠/١ .

(٣١) عبقريّة الشريف الرضي - زكي مبارك : ١٨١/١ ط ٤
القاهرة - مطبعة حجازي .

(٣٢) ديوانه : ٢٥٤/١ دار صادر - بيروت .

ليس على مضرهما سببة
ولا على المجلب منها جناح
دونكم فابتدروا غنمها
دمى مباحات ومال مباح
فاننا في ارض أعدائنا
لانطأ العذراء الا سفاح

ويلاحظ الشريف الرضي في البيت ما قبل
الآخر يحفز جنوده الى المطامع والمغانم الحربية
المغرية « النساء ... والاموال » وهو في هذا المقام
يعبر عن نزعة بدوية ، ويبدو متأثرا بالموروث
الحماسي . فقد اتى على هذا المعنى غيره ممن سبقه
من الشعراء العرب ، حيث عبروا عن هذا المعنى
الذي يعتبر من مغانم الحرب ومغرياتها .

ويبدو الرضي في البيت الاخير :

فاننا في ارض أعدائنا
لانطأ العذراء الا سفاح

معبرا عن قوته ، وعن قوة جنوده ، وشدة
فتكهم بأعدائهم ، وتمكنهم من اغتصاب أعز ما
لديهم .

ويذهب زكي مبارك الى ان الرضي في هذا
البيت « يسجل أخلاق الجنود المفاوير ، والجنود
المفاوير لا يعرفون المصقول من آداب
الناس ... الخ » (٣٣)

وهو هنا - اعني زكي مبارك - يلتمس العذر
لشريف الرضي ، من بشاعة هذه الاخلاق ،
ووحشيتهما ، على حد قوله . وفي نظري ان الرضي
ليس بحاجة الى من يلتمس له العذر في هذا البيت
من الشعر ، فهو في القرن الرابع الهجري ، الذي
اُطرح فيه الحشمة في الشعر ، وفي غير الشعر ،
الكثير من ذوي السلطان ، والمراكز الاجتماعية
والدينية (٣٤) ، حتى اصبحت امثال هذه المعاني
مألوفة ، بل ومستساغة اذا ما قيست بغيرها من
معاني الفحش والبذاءة في هذا القرن . فقد مر علينا
اثناء الحديث عن الحياة الاجتماعية في هذا القرن ،
ان التفنن في المجون والخلاعة ، ووصف
الفلان ... الخ كان نوعا من الترف الحضاري ،
والتطرف الاجتماعي وقد تأثر الرضي قليلا بهذا
النوع من الحياة حيث بدا على شعره شيء منها (٣٥) .

ولعلنا ، من هذه الزاوية يمكننا ان نفسر ذلك
الروح الشفاف والقلب النابض بمشاعر الصباية
والهوى ، ونحن نقرا غزله الرقيق ، في حجازياته
التي اطلق فيها لعواطفه العنان ، وهو بعد هذا كله
لا جناح عليه ، ولا حرج في ان يأتي على المعنى القديم :

فاننا في ارض أعدائنا

لانطأ العذراء الا سفاح

ولقد فات الدكتور زكي مبارك ان الرضي
لا يسجل اخلاق جنوده تسجيلا اوتوماتيكيا تحكمه
الصنعة والفن الشعري فقط ، وانما هو فوق
هذا وذاك ، شاعر يحس ، وانسان يعبر عن شيء
دفن يختلج في صدره ، ويبدولي هنا انه يصدر عن
نزعة جنسية حبسية ، وجدت لها متنفسا في هذا
المقام ، فانطلقت من عقالها نائفة هائجة ، لتخرج
بحماس الشاعر ، وثورته ، وهياجه . والشريف
الرضي يعبر عن هذه النزعة الحبسية ، التي
قيدها مقامه الاجتماعي ، ومنزلته الدينية ، في نفس
هذه القصيدة ، وعلى نحو آخر ، وهو ينحو منحى
سياسيا ، يترقب الثورة التي ترتج بها بغداد ،
لتحرق بناورها أولئك الرجال الذين يشبهون
العذارى في تصرفاتهم ، والذين بأيديهم زمام الامور ،
فيصف الواحد منهم بالجن ، وبالميل الى حياة
الدعة والخمول ، ومعانقة النساء فيقول :-(٣٦)

إذا رداح الرّوع عنت له

فر الى ضم الكعاب الرداح

ومن الواضح ان اضافة الصفة الى الموصوف
في قوله « رداح الرّوع » انما هي في مظهرها
الاعتيادي ، تشبيه بليغ ، ولكن ما هو بعدها
النفسية ؟ وما هو مدلولها الحسي ؟ واية عفوية
لا شعورية جعلت الشريف الرضي يشبه الحرب
بالمرأة الرداح ؟ يبدو لي مرة أخرى ، انها النزعة
الجنسية التي تنطلق من اللاشعور ، لتتنفس من
خلال هذه الكلمة الندية وامثالها (٣٧) . وكثيرا ما
عرج الشريف الرضي على الكلمة الندية الغزلة ، وهو
في مقام الحماس اللاهب ، وكثيرا ما مزج الحماسة
بالغزل (٣٨) . وما تفسر ذلك الا هذا الاحتباس
النفسي العاطفي الذي يسري عنه في مثل هذه
المواقف .

ثم يستمر الرضي بهذه القصيدة ، في نفس
حماسي ممتد ، محفزا نفسه ، راميا بهمته عبر

(٣٣) عبقرية الشريف الرضي - زكي مبارك : ١٨٢/١ ط ٤ -
القاهرة - مطبعة حجازي .

(٣٤) اليتيمة : ٢٣٦/٢ ، ٢٢٦/٢ .

(٣٥) اليتيمة - الثعالبى : ١٥٥/٢ . ودبوان الشريف :
٢٧٢/٢ .

(٣٦) ديوانه : ٢٥٥/١ دار صادر - بيروت .

(٣٧) ديوانه : ٢٤١/١ دار صادر - بيروت .

(٣٨) ديوانه : ٢٨٤/٢ دار صادر - بيروت .

المخاطر ، واصفا نفسه « بالفلام الوقاح » ، وكلمة (غلام) عند الشريف ، تعني بالضبط : الفتى الشجاع : (٣٩)

يا نفس من هم الى همّة
فليس من عب الاذى مستراح
قد آن للقلب الذي كده
طول مناجاة المنى ان يراح
لا بد ان اركبها صعبة
وقاحة تحت غلام وقاح
يجهدا او ينثنى بالردى
دون الذي قدر او بالنجاح
الراح والراحة ذل الفتى
والعز في شرب ضرب اللقاح
في حيث لاحكم لفسر القننا
ولا مطاع غير داعي الكفاح

وهو في هذه الابيات يعبر عن روح الفتوة ، ويسجل اخلاقها ، ويقارن بين حياة المدينة ، وما فيها من دعة ، وتبذل ، وذلل ، وبين حياة البداوة ، وما فيها من خشونة وصرامة وعز ، عارضا ذلك في الصورة النقدية الاجتماعية البائرة :

الراح والراحة ذل الفتى

والعز في شرب ضرب اللقاح

والقصيدة ، من اولها الى آخرها ، تكاد تكون وحدة حماسية ، تتعاقب أبياتها ، وتتدفق من خلال هذا البحر « السريع » ، وهذه القافية الساكنة ، التي اضفت عليها روحا من الحداثة ، والتوثب ، والنزوان الذي يتلاءم مع ارتكاض الخيل ، وسرعة حركتها . وهي ، على ما يتخللها من وصف على طريقة المتنبي ، نلمح الشريف الرضي من خلالها ، بطلا يتربص الثورة المدسرة التي ترتج بها الزوراء ، وتنزلزل منها الارض ، وتسيل الدماء ، ويهرب الناس ، متلفتين ، مذعورين . على ان هذه البطولة عند الرضي ، انما هي بطولة شعورية ، اكثر منها بطولة مادية ، اعني انها احلام بطولة ، لان الشاعر الشريف ، لم يثبت عنه التاريخ انه كان فارسا يخوض المعارك . وسنتوسع في هذا القول عند الحديث عن احلام اليقظة في شعره الحماسي . ولنستمع اليه ، ونصوره وهو يتوقع الثورة حيث يقول :-

متى ارى الزوراء مرتجة
تمطر بالبيض الطبي او تراح (٤٠)
يصبح فيها الموت عن السن
من العوالي والمواضي فصاح
بكل روعاء عطينية
يحتثها اروع شاكي السلاح (٤١)
كانما ينظر من ظلها
نعامة زيافة بالجنح
متى ارى الارض وقد زلزلت
بعارض اغبر دامى النواح
متى ارى الناس وقد صبحوا
اوائل اليوم بطعن صراح
يلتفت الهارب من عطفه
مروعا يرقب وقع الجراح
متى ارى البيض وقد امطرت
سيل دم يغلب سيل البطاح

واذا كان واقع الحياة السياسية وما رافقه من صراع على السلطة ، تسفك فيه الدماء ، وتكثر الفتن ، ويسمل الخلفاء ، ويخلعون ، ويقتلون ، او ينصبون على عرش الخلافة وليس لهم غير الاسم - اذا كان هذا كله ، وغير هذا ، قد ألهم حس الرضي ، والهمه صدق المعاناة ، وحرارة التجربة ، فتحمس ، وثار على الاوضاع المزريّة المؤلمة ، واتحفنا باناشيد الفتوة والبطولة ، فانه يطل علينا في مجال آخر ، بقصائد حماسية اخرى متكاملة ، ولكن دوافعها قد تكون غير سياسية ، فربما اثار غضبه حافر نفسي محض ، قد يكون سببا في هياجه ، من امثال ما كان يتعرض له من اذى ، او ما يسمعه من كلام جارح . وقد عانى الرضي ، وخصوصا في طور الغمة من حياته ، الكثير من امثال هذه المواقف ، وتوالت عليه احداث ومحن ، ألهمت مشاعره ، وخلقت منه انسانا شديدا الحس ، سريع الغضب ، وقد كان في طبعه انفة وكبرياء ، ونفور عن مواطن الهوان والذل ، فاذا شعر بالاذى ياتيه متعمدا ، لجأ الى القتاب ، فان لم يغن اعقبه بثورة لاهية ، كما فعل في « بانيته » . وهي قصيدة حماسية متكاملة ، دأفها نفور من الاذى ، وثورة عليه ، وقد مزجها الشريف ، بالوصف الحربي ، وضمنها روائع الحكمة ، شأن استاذة

(٤٠) ديوانه : ٢٥٥/١ دار صادر - بيروت .

(٤١) عطينية : المنتخبة البطن من اكل شجر العطين .

(٣٩) ديوانه : ٢٥٤/١ دار صادر - بيروت .

المتنبي ، ولكنه لم يبلغ مبلغه فيها ، ثم نفث في أبياتها ما تجيش به همومه ، وحذر وأوعد وقال :-(٤٢)

الى كم لا تلين على العتاب

وانت أصم عن رد الجواب

حذارك ان تغالبني غلاباً

فأني لا أدر على الفضاب(٤٣)

وانك ان اقمتم على اذاتي

فتحت الى انتصاري كل باب

واحلم ثم يدركني إيائي

وكم يبقى القرين على الجذاب

اذا وليتني ظفراً وناباً

فدونك فاخش من ظفري ونابي

فان حميمة القرناء تطفئ

فتشلم جانب النسب القرب

نفر الى الشراب اذا غصصنا

فكيف اذا غصصنا بالشراب ؟

ويبدو أن الشريف الرضي في البيتين الأخيرين يخاطب قريباً له ، وأن الإذاعة تأتيه من هذا القريب ، والرضي هنا ، يعطينا صورة مصغرة مما آلت إليه الحياة الاجتماعية في عصره ، في جانب من جوانبها الخلقية ، وأعني بذلك أنه يرسم لنا صورة من صور أيام محنته حين سجن أبوه ، وحين صودرت أملاكه ، فتخلى عنه الاصدقاء ، وناصبه العداوة بعض القرباء . على أنه ، وهو في غمرة الحماس الذي يصور فيه أباءه وقوته ، وصبره ، لا ينسى أن يعرج على قومه ، مؤكداً على الحس الجماعي الذي لا يكاد يفارقه في حماسه ، وفي فخره ، وفي تمجده بقوته ، فهو يخاطب من يناصبه العداوة ويقول :

ورب ركائب من نحو أرضي

تخب اليك بالعجب العجاب

وتظهر أسرة من سر قومي

تمد الى انتظاري بالرقاب(٤٤)

ويمتد بالشريف الرضي هذا الحس الجماعي ، فيأتي على ذكر الوقائع والاحداث التاريخية وأيام العرب المشهورة(٤٥) في أماكن أخرى من شعره وهو

(٤٢) ديوانه : ١٩٠/١ دار صادر .

(٤٣) لا ادر على الفضاب : لاكثر خيراتي على من يفاضبني .

(٤٤) سر قومي : محض نسيهم .

(٤٥) انظر : الديوان ٣٠٨/١ البيت : (٥ ، ٧ ، ١٠) و :

٢٣٣ البيت : ١١ و : ١٢٩ البيت : ٩ و : ٢٥٢

البيت : (٣ ، ٤ ، ٥) .

يخرج بهذا من دائرة قومه في النسب ، الى دائرة أشمل وأوسع ، تلك هي دائرة الحس الجماعي العربي . والشريف يعبر هنا عن نزعتة العربية ، ويعطي لشعره قيمة تاريخية أيضاً ، ويدبر الكلام من مخاطبة الفرد الذي يناصبه العداوة ، الى مخاطبة الجماعة فيقول :

تذكركم بذي قار طعاناً

وما جر القنا يوم الكلاب

عليها كل أبلج من قرير

ليبق بالطعان وبالضراب

أما النزعة العربية التي نجدناها في مواطن كثيرة من شعر الشريف والتي تتجلبب تارة بثوب البداوة ، وتبرز تارة أخرى صريحة قحة ،(٤٦) فلعل من أسبابها نسبة العالي ، ومقامه الاجتماعي الرفيع ، وشعوره العميق بالتفوق وامتلاك القدرات ، ثم طغيان الروح الفارسي على الحياة والأدب .

والشريف الرضي عربي أصيل ، وتأريخه يضعه في الدروة من المجد والعزة والبطولة والشرف والأباء ، في عصر ضاعت فيه القيم ، وساد فيه من لا مجد يرفعه ، ولا مكانة اجتماعية تعلية ، ولا ملكات شخصية تعزز منزلته ، فتلفت الشاعر الى من حوله ، ووجد نفسه ضائعاً ،(٤٧) أو كالمضائع في عصره ، فتألم ، وثار ، وأبى ، وطمح إلا أن المشبطات القاهرة وقفت حائلاً دون تحقيق آماله ، ولقد كانت كل هذه العوامل مدعاة لاثارة روح عربية اسلامية عنده ، وعند الكثيرين من ادباء القرن الرابع الهجري بحيث اتخذت طابعاً خاصاً ، ومثلت مدرسة فكرية ، واسلوبية واعية ، لم تصدر عن انفعال ، وقد تمثلت هذه النزعة في شعر الرضي(٤٨) ، فكان عربياً ، قومياً ثائراً على قيم عصره الفكرية ، والسياسية ، والخلقية .

وفي هذه القصيدة التي بين أيدينا ، يصل الشريف الرضي الى ذروة الغضب والثورة ، والترقب لليوم الحاسم ، حيث يذيق الاعداء سم عقابه ، وحيث ينصب قدوره فوق هاماتهم ، ويمزج شرابه بدمائهم ، ويركز رماحه في قلوبهم ، ويضرب قبابه في ديارهم ، فاذا هلك فحسبه جراً ، واذا ملك فحسبه غنى في مطلبه ، وكل أولئك صور لاحلام يقظان ، مبعثها حافز النفور من الاذى ،

(٤٦) ديوانه : ٥٣٥/١ ، ١٠٦/١ ، ٣٣٥/١ ، ٤٣١/٢ ، ٤٣٢ .

(٤٧) ديوانه : ٨٠/١ دار صادر .

(٤٨) الادب في ظل بني بويه - الدكتور محمود غنواوي :

ص ١٦٠ - ١٦٣ .

والثورة على الضيم ، ينفس فيها الشاعر عن ألم
دفين ، ويعبر خلالها عن أمل يتمنى تحقيقه ويقول :

وعندي للعدى لابد يوم

يذيقهم المسمم من عقابي

فأنصب فوق هامهم قدوري

وأمزج من دماهم شرابي

وأركز في قلوبهم رماحي

وأضرب في ديارهم قبابي

فأن أهلك فعن قدر جري

وان أملك فقد أغنى طلابي

ولعل من أجمل قصائد الرضي الحماسية
المتكاملة ، قصيدته التي يبدأها بالحديث عن
الحرب ، ويمزج ذلك بالفخر الصارخ ، متحدنا
عن علو همته ، ومضاء عزمه ، ونفوره من مواطن
الذل . يقول الرضي في هذه القصيدة : (٤٩)

لي الحرب معطوفاً علي هياجها

وظل جوادي قيفظها وعجاجها

ويأنف عزمي أن يرد رماحها

إذا اشتبهت خرسانها وزجاجها

فمابال بغداد إذا اشتقت رحلة

تشبث بي غيطانها وفجاجها

كان لها ديناً علي ، وانسي

سيطلبها سيفي ، وديني خراجها

أبغداد مالي فيك نهلة شرب

من العيش إلا والخطوب مزاجها

ولو أنني أرضى بأدنى معيشة

لأرضت منائي عند أهليك حاجها

ولكنني جار على حكم همة

كثير عن الطبع الدليل انعراجها

يخيل لي أن الأمانى غياهب

ولا تنجلي إلا وعزمي سراجها

والرضي في هذه القصيدة ، يعبر عن اضطراع
عالم الحضارة والبداءة في نفسه ، كما يعبر عن
ثورته على المدينة (٥٠) بسبب ما يلاقيه من خطوب ،
وعن تمرده على الواقع الاجتماعي الذي كان يعيش
فيه ، حيث هزته أحداثه وتناقضاته فانتفض

كالجريح ، ونظر الى خصومه بعين يلتصع فيها الشر ،
وظل الى فترة طويلة من حياته قوي العزم ، جريء
القلب ، لم يتخاذل أمام الأحداث والنكبات .

على أن ما يقدمه الرضي في هذه القصيدة ،
إنما هو محض صورة فنية لشاعر مأزوم ، يتصور
الثورة ، ويتغنى بالحرب ، وينهل من الموروث
الحماسي العربي (٥١) ولا يأتيها بجديد يختلف
فيه عمن سبقه من الشعراء المتحمسين الفرسان
لولا هذه النبذة الحادة الثائرة التي تطبع شعره ،
وتعطيه روحاً من القوة ، وعنصراً من التشخيص
يميزه عن غيره . والخلاصة ، أن ديوان الرضي مليء
بالشعر الحماسي ، وقد وجدناه في الكثير من
مقدمات قصائده ، مستعياً به عن المقدمات
الطللية ، ومنسجماً مع الموقف النفسي الذي هو
فيه . وسنجد ماثلاً كذلك ، في أكثر قصائده ،
وفي تضاعفها ، وقد وجدنا إضافة الى هذا ، وذلك ،
أن له بعض القصائد الحماسية المتكاملة (٥٢) وهي
قصائد يتخللها الوصف الحربي الذي يمتزج بحماس
الشاعر ، وهو في مجمله وصف حربي عام ، وأعني
بذلك أنه وصف للحرب المثالية ، لا لحرب بعينها .
وقد وجدنا أن القصيدة الحماسية عند الشريف
الرضي ، دافعا على الاغلب تجربة شعورية محضة ،
وعلى الأقل عوامل خارجية مادية تكون سببا في
ثورته وهياجه ، كما لاحظنا أن الرضي يتأثر
بالموروث الحماسي العربي مما حفظه ، وهضمه
وهو كثيراً ما يستطرد في حماسه الذاتية ، معرجاً
منها على الفخر التقليدي ، وهو فخر أما بنسبه ،
وأما بقومه ، ويبدو أنه كثيراً ما يرى نفسه من خلال
نسبه وقومه ، على العكس من المتنبي الذي كان يرى
نفسه من خلال نفسه (٥٣) . أما صورة الرضي في
قصيدته الحماسية ، فهي صورة الفارس النموذج ،
ولعل صورة فتياه الشجعان ، هي الاخرى صورة
لما يتمناه في الواقع المادي .

الحماسة في أغراض شعر الرضي

مر علينا في بداية هذا الفصل ، أن الحماسة
في شعر الشريف الرضي كانت كثيراً ما تجيء في
مقدمات قصائده ، منسجمة مع موقفه النفسي ،
وملائمة لغرض القصيدة .

(٥١) ينظر في البيت السادس الى قول امرئ القيس :

ولو أنني أرضى بأدنى معيشة

كفاني - ولم أنظ - قليل من المال

(٥٢) ديوانه : ٥٣٢/٢ ، ٤٨٧/١ دار صادر .

(٥٣) الشريف الرضي - احسان عباس : ص ١٦٨ .

(٤٩) ديوانه : ٢٣٤/١ دار صادر - بيروت .

(٥٠) الشريف الرضي - احسان عباس : ص ٢٢٧ وديوانه :

٢٦٠/٢ .

- بسببها - رواسب بدوية قحة ، ولكي تقف على أسرار حماسته ، ونفسرها تفسيراً موضوعياً ، لابد لنا من أن نتدرج معه عبر الاحداث والوقائع ، وان نسير على خطين متوازيين في حياته وشعره ، مستنيرين بتطوره عبر هذه الاحداث ، مستعينين بما خلفته من آثار على مرآة نفسه وشعره .

ولعل خيراً ما يعيننا على ذلك ، قصائده في المدح والثناء ، بشكل خاص ، فهي على الرغم من كثرتها ، توضح أكثر من سواها ، صلة الشاعر بعصره ، كما تعبر عن علاقاته ، وآماله ، وفرحه ، وحزنه ، وثورته ، وهذوئه ، فقد استغلها الشريف الرضي استغلالاً سياسياً ومذهبياً ليعبر عن مواقفه في رحلة عمره ، وعما يشعر به ازاء الاحداث في بغداد وغيرها .

فقصائد مدحه تبلغ التسعين قصيدة ، وهو يتحسس في أغلبها ، في مقدماتها ، وفي ثناياها .

وقصائد الرثاء تبلغ الثمانين ، وتأتي بعد قصائد المدح ، حيث يبدو فيها أقل حماساً لأنه يقلب عليه البكاء ، وينسيه أحياناً اضطراب صدره بالثورة على عصره وأهل عصره ، ويجره الى نوع من النواح الذي يشبه النذب الجنائزي ، وقد سماه بعض النقاد القدامى « النائحة الثكلى » (٥٦) لهذا السبب .

وسأحاول الحديث عن حماسته الشريف الرضي من هذه الزاوية ، ماراً بالاحداث الكبرى في حياته ، مكتفياً بالنماذج التي تفي بالفرض ، وتعطي صورة عن حياته وشعره الحماسي . وأول ما يطالعنا في هذا الباب « داليتة » (المشهورة التي نظمها وسنه فوق العشر بقليل) (٥٧) . فهي أولى قصائده التي توجع فيها لوالده ، وهي قصيدة طويلة عدة أبياتها ثمانية وسبعون بيتاً ، ومطلعها :

نصافي المعالي والزمان معاند
وننهض بالآمال والجند قاعد

فقد نظمها في مدح والده عندما قبض عليه المظهر وزير عضد الدولة وحبسه في القلعة بفارس ، ومعه محمد بن عمر العلوي ، والقاضي ابن معروف ، وعمره بقولته المشهورة « كم تدل علينا بالعظام النخرة » وقد مزج الشريف شكواه في هذه القصيدة بالسخط والثورة وقال :

(٥٦) الوالي بالوفيات : صلاح الدين الصفدي ؟ ٣٧٤/٢ ، طبعة ديتز .

(٥٧) ديوان الرضي : ٢٠٧/١ - دار صادر . وزكي مبارك - عبقرية الشريف الرضي : ١٠٩/١ .

كما مر علينا أيضاً ، أن ديوانه لم يخل من القصائد الحماسية المتكاملة ، التي كانت تتدفق على لسانه معبراً فيها عن هذه الروح التي لا تكاد تفارقه ، بسبب الظروف الموضوعية والنفسية التي تواكب على تكوينه .

وقد المعنا الى أن روح الحماسة في أكثر قصائده ، ماثوثة في تضاعيفها ، طاغية عليها ، في مدحه ، ورثائه ، وفخره ، وهجائه ، وشكواه ، وغزله ، ووصفه .

والمعروف ان الرضي شهد الصراع الدموي الذي اضطرب به القرن الرابع الهجري ، واتصل بالكثير من احداثه ، في علاقاته مع ملوكه وخلفائه وزعمائه ، وفي مناصبه واسفاره ، بل اكتوى بناره وهو في ريعان صباه ، وكان هذا العصر القلق المضطرب ، مع كل ما فيه من حضارة ، ومدنية ، وشعبوية ، وتحلل ، وفسق ، وخمرة ، عاملاً فعالاً في ثورته ، وحزنه ، والمه ، وقلقه ، وانتفاضته على واقع مرير أهمله ، بل تنكر له ، وهو الذي يشعر في قرارة نفسه ، انه يحمل كل المؤهلات التي تمهد له سبل الجد والزعامة ، ولكنه يصطدم بصخرة هذا الواقع الذي اضطرب فيه المقاييس والقيم ، فيثور عليه ، ويصرخ في وجهه : (٥٨)

أنا السيف الا انني في معاشر
أرى كل سيف عندهم لايجرب

ولعل في معنى هذا البيت سر أزمته النفسية التي كانت عاملاً قوياً من عوامل ابداعه الشعري ، ولعله أيضاً ، صورة للتعبير عن آلام وآمال طبقته التي سحقتها عجلة الحياة في القرن الرابع الهجري .

وفي الحقيقة « ان شعر الشريف الرضي في أكثر اغراضه ، كان يمثل ظاهرة أدبية قائمة بذاتها ، تهدف الى تصوير ما كان يختلج في نفوس طبقة معينة من الآلام وآمال ، وأعني بهذه الطبقة ، أولئك العرب المفلوبين على أمرهم في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، فقد كانوا ينظرون الى الحاضر وما أصابهم فيه على يد الاعاجم من فشل واخفاق فيجزعون ويألمون ، وكانوا يتطلعون الى المستقبل ، فتداعبهم الاحلام بالظفر والنجاح ، فيطمعون ويألمون » (٥٩) .

ويبدو ان الشريف الرضي ، كان يحمل متناقضات الحاضرة ، في هذا القرن ، كما كان يحمل

(٥٨) ديوان الرضي : ٨٠/١ دار صادر - بيروت .

(٥٩) الادب في ظل بني بويه - الدكتور محمود غناوي الزهري : ص ١٦٤ - مطبعة الامانة .

الرضي قصيدة في مدح والده ايضا ، وذم الزمان
والخطوب ، وتحدث عن نزوعه الى طلب العلى وهو
في طور النكبة ، وعن نفوره من مرادن الدل وقال :

رب طلابٍ أتلع رمتـه
وحاجةٍ عالية الهادي
معتجراً بالليل أحـدو به
بزلاء تستولي على الحادي
لا ارد الماء ولو أنـني
ضجيع أسدام وأعداد(٦٣)

والمهم في هذه القصيدة ، ما أورده فيها من
أبيات تنم عن ثورة وتمرد على واقعه في بغداد ،
وعن شعور بالفربة فيها :

ما الرزق بالكرخ مقيم ولا
طوق العلى في جيد بغداد

أنحلني فيها طلاب العلى
وذاك فخري عند أندادي
لو كان دائي من غرام الهوى
جزعت من أبصار عوادي

وفي قصيدة أخرى في نفس العام ، مدح
الخليفة الطائع لله ، ولم ينس أن يعرج على فخره
بأبيه ، وذمه لبعض أعدائه ، وقد استغل الموقف
ليحدث عن ثورة نفسه وجيشان حزنه ، وما الحقه
به الدهر من الهم والكدر ، مصطنعا « كاملية »
جرير :

وهذا الدهر خفض من عرامي
ورنق من غبوقي وأصطباحي
وقد كان الملام يطيف مني
بمنجذب العنان الى الجماح
تؤول النائبات الى مرادي
ويعطيني الزمان على اقتراحي

ثم تأخذه فورة الحماس ، فيستفرق في حلم
اليقظة ، ويصور نفسه فارساً يطل على غريمه من
عل ، بطعنه نجلاء ، مندجاً في حلمه ، هاجماً على
خصمه في صورة البطل الذي الفناه في أكثر قصائده
حيث يقول : (٦٤)

(٦٣) الاسدام ، الواحد سدم : الهم مع الندم والفيظ مع
الحزن والاعداد ، الواحد عد : الماء الجاري لا ينقطع .
(٦٤) ديوان الرضي : ٢٤٠/١ - ٢٤٢ صادر .

يقتـر بعيني أن أرى أرض بابل
تخوض مغانيها الجياد المداود
وأسحب فيها برد جدلان شامت
إذا شاء غنته الرقاق البوارد

أما المظهر ، فطاغ باغ ، يعير والده بالعظام
النخرة المنزهة ، والشريف تثيره هذه الكلمات ،
وتظل راسبة في أعماق شعوره ، ثم تظهر في مناسبة
أخرى ، وعلى نحو آخر (٥٨) لأنها كانت طعنة نجلاء
في صميم الشريف الشاعر الشاب المنكوب ، يقول
الشريف في المظهر هذا :

وطاغ يعير البغي غرب لسانه
وليس له من جانب الدين ذائد(٥٩)

شنت عليه الحق حتى رددته
صموتاً ، وفي أنيابه القول راقد
يدل بغير الله عضداً وناصراً

وناصرك الرحمن والمجد عاضد
يعير رب الخير بالي عظامه
الا نزهت تلك العظام البوائد(٦٠)

ولكن رأى سبب النبي غنيمته
وما حوله إلا مريب وجاحد
ولو كان بين الفاطميين رفرقت
عليه العوالي والظبي والسواعد

ولقد مدح الرضي إباه بأكثر من أربعين
قصيدة ، توجع له في الطائفة الأولى منها ، وهنأه
بالخلاص ورد أملاكه اليه في الطائفة الثانية ، كما
هنأه بالأعياد في الطائفة الثالثة منها ، ودخل عليه
كما يدخل على الملوك(٦١) ، وسجل خلال هذه
الاشعار تاريخ أبيه الحافل كما انفعول وتحمس ازاء
الكثير من الاحداث وهو في معرض المدح .

وكما كانت مواقف الرضي امام والده تثير في
نفسه الحماسة والثورة كما أسلفت ، فانه تحمس
وثار في مواقف أخرى ، وكثيراً ما « كانت مدائحه
شاهداً على اشتباكه في الممارك السياسية التي كانت
تثور في فارس والعراق »(٦٢) .

وفي مناسبة أخرى سنة (٣٧٤ هـ) كتب

(٥٨) ديوان الرضي : ٢٢٩/١ دار صادر .
(٥٩) في الديوان « عن » والصحيح ما انبتناه .
(٦٠) في الديوان ، « تعير » والصواب : « يعير » .
(٦١) عبقرية الشريف الرضي - زكي مبارك : ١٠٦/١ .
(٦٢) نفس المرجع : ١٥٤/١ وانظر ديوانه : ٥٥٠/٢ .

ومدرع سموت له مفعلاً
وقد غرّضَ المقارع بالرماح
بنافذة تمطق عن نجيع
تمطق شارب المقر الصراح
واخرى في الضلوع لها هدير
هدير الفحل قرب للقاح

ومما لاشك فيه أن هذه صورة من أحلام اليقظة ، يخفف فيها الرضي من عبئه النفسي ، وآلامه المكظومة ، ومن المعروف لدى علماء النفس أن « ابداع الفنان يرجع في مصدره الى الرغبة في التخفيف من عبء خاص ، والى محاولة تحقيق رغبات في عالم الخيال ، لم تشبع في عالم الواقع » (٦٥)

وقد اشرنا في غير هذا المكان الى الصورة الحماسية في البيت الاخير ، فهي بالاضافة الى كونها صورة بدوية قحة الا انها لا تخلو من نزوع جنسي عفوي ، يمتزج بها ، ويفذيها ، ويشيرها عنيفة حادة .

ويستغل الرضي قصيدة المدح ، فيتحمس لاسباب هي غير ما ذكرنا ، وقد ثار هنا ، وتحمس ، لان هناك من يريد ضيمه ، والوقوف في طريق طماحه ، وخاطب شخصاً ما يزال غامضاً ، وسماه ، وهدر في وجهه :

ابا هرم انتحها انسي
باي يد تطامن من طماحي

لحقت ابي نزاعاً في العالي
وعرقاً في الشجاعة والسماح
وطبقت العراق لنا قباب
نظللها بأطراف الرماح

وهكذا يعود الشريف الرضي ، الى أصله ونسبه ، ليرى نفسه من خلال ذلك النسب ، كما يتكئ في بيته الاخير على هذا المعنى المكرور في الموروث الحماسي العربي القديم :

وطبقت العراق لنا قباب
نظللها بأطراف الرماح

ويظهر ان ابا هرم هذا ، كان رجلاً يفيضه لسب لم تكشفه سيرة الرضي ولا شعره ، وقد ذكره في موضع آخر هو أشبه بالهجاء ، ووقف امامه متحمساً ثائراً :- (٦٦)

(٦٥) التفسير النفسي للادب - عز الدين اسماعيل : ص ٩٠
(٦٦) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٥٠/٢ .

ابا هرم انتحها انسي
سامطرها عن قليل دما
ولا تشمخن بأنف الابي
فاولى لانفك أن يرغما

وهذا النوع من العداء كان يشير الرضي ويفيضة ، وينطقه بشعر ثائر عنيف وهو لذلك يفسر جانباً من شعره الحماسي (٦٧) .

وفي سنة ٣٧٤ ايضاً ، وهو عام التكة بالنسبة للرضي ، حيث ان اياه ما يزال سجيناً ، في هذه السنة اجتمع بأبيه (٦٨) ، ثم هزه الموقف ، فمدحه ، وعرض بأعدائه ممن خذاه ونافسوه ، وحذر مهدداً :

حذار بني العنقاء من متناول
الى الحرب ، لا يخشى جناية جان
وقال متوعداً :

فهذا وعيد ، سطوتي من ورائه
وعنوان ناري ان يبين دخاني
فلا يحسب الاعداء كيدي غنيمة
ولا انني في الشر غير معان

ثم تأخذه النشوة ، فينتقل الى مدح ابيه ، ولكنه يبقى في ذروة حماسه ، مندمجاً مع الموقف ، هادراً في نفس غنائي ، فيه طرب ، وفيه اعتداد ، وفيه ثورة :

وابيض من عليا معد كأنما
تلاقى على عرينه القمران
اذا رمت طعنأ بالقريض حميته
وان رمت طعنأ بالرماح حماني
يجود اذا ضن الجواد بنفسه
ويمضي اذا مازلت القدمان
والرضي يعارض هنا « نونية المتنبي » (٦٩)
ويذكر في البيت الاخير يقول الشاعر :

تجود بالنفس اذ انت الضنين بها
والجود بالنفس اقصى غاية الجود (٧٠)

ثم يستمر في مدحه لأبيه ، في نفس ملحمي ، ونبرة متوثبة ، نلمح الرضي من خلالها مجلجلاً وكأنه

(٦٧) المصدر نفسه : ٢١٢/١ ، ٤٠٤ و ١٨١/٢ .
(٦٨) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٩٥/٢ .
(٦٩) ديوان المتنبي - شرح البرفوقي : ٣٧٣/٤ .
(٧٠) ديوان مسلم بن الوليد ؟ تحقيق سامي الدهان ؟ ص ١٢٤ .

وجد في شخص أبيه متنفسا لثورة يكظمها ، وحماس
يعتلج في صدره :

أبا أحمد انت الشجاع ، وانما
تجر العوالي عرضة لطمعان
ولما غوى الفاوون فيك وفرجت
ضلوع على الفل القديم حواني
نجوت عن الغماء وهي قريبة
نجاء الثريا من يد الدبران
وغيرك غض اللد من نجواته
وطامن للأيام شخص مهان

حتى اذا فرغ من زفرة الحماس هذه ، عاد
الى نفسه ، وهو يخاطب اياه ، تغمزه النشوة ،
وهو ينشد :

اغضي على ضيم ، وعزك ناصري
وباعني طويل من وراء سناني
إذا فعداني الضيف في كل ليلة
وكبت بأعجاز البيوت جفاني

وإذا كانت مدائح الرضي لوالده ، تثير في
نفسه صور البطولة والحماس ، لانه يجد في ذات
والده البديل الذي افتقده في واقعة المادي ، فان
مدحه له في فترة تكبته ، كثيرا ما اثار في نفسه
لواعج الألم الدفين ، والفورات العاطفية الحزينة .
قال الرضي ، من قصيدة سنة (٣٧٥ هـ) في
معرض مدحه لوالده : (٧١)

أبكي على الايام ، وهي ضواحك
في وجه غيري ، وهو فيها حائر
لو شاب طرف ، شاب أسودناظري
من طول ما أنا في الحوادث ناظر
أو أن هذي الشمس تصبغ لمسة
صبغت شواتي طول ما أنا حاسر

ففي هذه الابيات صورة عنيفة لاعوام بؤسه ،
تعبير تعبيرا صادقا عن ألم تآثر ، واحتماس نفسي
داخلي ، وأهتزاز عاطفي جامع ، تطل علينا من خلاله
صورة الشريف الرضي ، المتألم ، الصابر ، الجلد ،
المحتمل للمصائب ، ولا فرق في ذلك في أن يكون
في معركة يجالده ويصير ، أو في مثل هذه المعاناة
الشعورية ، ولعله يشبه في هذا ما أورده

(٧١) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٣٦/١ .

التبريزي (٧٢) لعبدالصمد بن العدل ، والمزوقي (٧٣)
لمؤرج السدوسي .

ثم تحل سنة (٣٧٦ هـ) وأبوه طليق ، والخليفة
الطائع لله يرعاه ويستقبله ، وظل الشيخ الرهيب -
عضد الدولة - ينحسر ، فتزول الفمسة ، وإذا
بقصيدة الرضي في الطائع لله ، تبدأ بنشوة ، أو
سلوة كما يسميها ، تذهب بكل غرام ، وتزيل حر
الجوي ، وتنعش آمال الشاعر باستقبال العز ، وإباء
اللد فيقول : (٧٤)

نفذ الصبابة خاطري وجواني
وأبى المذلة منزلي ومقامي

ويقول :

هيهات يخفضني الزمان ، وانما
بيني وبين الدل حد حسامي

ويمدحه ويهنئه بعيد الفطر سنة (٣٧٧ هـ)
بقصيدة مطلعها (٧٥) :

الى كم الطرف بالبدياء معقود
وكم تشكى سواي الضمير القود

معارض المتنبى ، محاكيا اياه ، في لغته ،
والفاظه ، ومعانيه (٧٦) ، وقد لازمته هذه الاتباعية
في بواكير حياته ثم تخلص منها بعد أن اكتملت
شخصيته الشعرية (٧٧) .

واستغرق في حلم يقظته ، متحمسا ، مصورا
نفسه يقطع الفيافي والليالي بصحبة الغلمة الذين
تورقهم الآمال .

ثم مدحه بأخرى في نفس العام ، واستغرق في
نفس الحلم ، وتساءل : لماذا يترك الرماح ظمائي ،
ولماذا يغضي عن مطالبه ، وتحمس وقال (٧٨) :

إذا ما جررت الرمح لم يشني أب
يليج ، ولا أم تصيح ورأسي

وهذه حالة قد تعتري الاطفال ، ولا تخطر على
بال الفرسان وهم في سوح الجلال ، ولكن الرضي
يريد بها التعبير عن التصميم الاكيد والعزم الماضي ،

- (٧٢) شرح ديوان الحماسة : التبريزي : ١٤٥/١ .
(٧٣) شرح ديوان الحماسة : المزوقي : ٢٧٤/١ .
(٧٤) ديوان الرضي - دار صادر : ٢٣٣/٢ - ٢٣٤ .
(٧٥) ديوان الرضي ، دار صادر : ٢٦٩/١ .
(٧٦) ديوان المتنبى ، شرح البرقوقى : ١٣٩/٢ . وانظر
ديوان الرضي ، دار صادر : ٥٧٦/٢ .
(٧٧) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ١٨٧ .
(٧٨) ديوان الرضي ، دار صادر : ٩/١ .

وكأنني به يريد أن يقول لنا : لا أحد في الدنيا يردني
إذا عزمت ومضيت .

ثم قال :

وشيئني قلب إذا ما أمرته

أطاع بعزم لا يروغ وراءه (٧٩)

أرى الناس يهونون الخلاص من الردى

وتكلمة المخلوق طول عناء

ويستقبحون القتل والقتل راحة

واتعب ميت من يموت بساء

فلست ابن أم الخيل إن لم أعد بها

عوايس تأبى الضيم مثل إبائي

وأنا أرى أن أكثر الرضي من الحديث عن
الموت على هذا النحو فيه تعبير عن التردد النفسي،
وفيه الحيرة القائلة بين ما يتمناه في الواقع ، وبين
ما يتطلبه هذا الواقع من الرجال الذين يحسنون
الصيال فعلا ، ويجيدون القتال فعلا ، لا الذين
يحلّمون ويفكرون ويصورون .

والرضي يلح عليه السؤال نفسه عن التردد
عن القتال ، والاغضاء عن المطالب ، كما يلح عليه
« التمني الثوري » منبثاً في كثير من أبياته
الحماسية كمثّل قوله :

متى أراني ودرعي غير محقبة
أجر رمحي ، وسيفي غير مقروب (٨٠)

الا أنه لم يقترب عنده بالعمل المادي الجاد ،
كما فعل الكثير من ثوار الشيعة في تاريخهم الطويل .

على أن هذا السؤال ، الذي يطرحه الرضي
على نفسه بأشكال مختلفة ، وفي مواقف متعددة ،
يبدو أنه سؤال نائر حالم ، وأن ثورته لا تعدو كونها
ثورة عقل يصور ويفكر ، وثورة روح لطيف يثقله
عبء كبير ، لا ثورة رجل قوى يقف دون آماله نوع
من التثبيط القاهر ، ولذلك فهو لم يخرج عن
حدود التصورات للثورة (٨١) ، التي هي عنده رد
نفسي عنيف على ما حوله ، ومن حوله ، فهو تارة
« نصل مغمّد » ولا بد أن يظهر معروفه لأن منكره

(٧٩) في الديوان (ورائي) وأرجح ما اثبتناه ، فلعله يقصد :
و (راي) وقد قلبها وخففها فأصبحت : و (راء) ومثلها
قوله :

فجردني تجدني سيف عزم

يصمم غربيه وذناب راء

(٨٠) ديوان الرضي - دار صادر : ٦١/١ .

(٨١) نفس المصدر : ١٩٢/١ ، ٢٠٨ .

قد طال ، وهو لابد أن يصدر بعد مورد ، مادام
هناك من ينتظر صدره ، ولكنه ماذا يفعل ، والخفر
عنده يميت الجراة ، ويقربه الى الذل ؟ أفلا يحق
لنا هنا ، أن نرى في هذا الخفر نوعاً من الجبن ؟
لنستمع اليه يقول :

ما أنا إلا النصل مغموداً ولو

جردني الروع لبان جوهر (٨٢)

لابد أن يظهر معروفه ، فقد

طال على مر الزمان منكري

لابد أن أصدر بعد مورد

قرب قوم يرقبون صدري

لابد أن أشعر وجهي جراً

فطالما ذلل عنقي خفري

ويلح عليه السؤال نفسه ، في قصيدة مدح بها
أباه وهناك بعيد الفطر سنة (٣٧٩ هـ) : لماذا يثقل ؟
لماذا لا يثور ؟ أليس مهنده بيده ؟ أليس جده النبي
المرسل (٨٣) ؟

مالي قنعت كأنّ ليس مهندي

بيدي ، ولا جدي النبي المرسل

فلاخذن من الزمان غلبّة

حقّي ، وامنع ما أشاء وأبدل

ولادخلن على النساء خدورها

واليوم ليل بالعجاجة الليل

ويلاحظ أنه في البيت الأخير يصطنع معنى
حماسياً قديماً ، ليعبر به عن معنى القوة والاعتصاب
واجتياح حمى الاعداء عنوة .

ثم يعبر عن موقفه السياسي ، وعن ثورته
على أوضاع عصره ، مفسراً جانباً من جوانب
حماسه في قوله :

وعلى أن يطأ العراق وأهلها

يوم أغر من الدماء محجل

يوم تزل به القلوب من الردى

جزعاً ، وأحرى أن تزل الأرجل

والشريف الرضي ، وإن كان في معرض المدح
لابيه ، إلا أننا يجب أن لا ننسى أنه في سنة (٣٧٩ هـ)
وإن الخليفة القادر بالله ، يهرب الى البطيحة في هذه
السنة ، وإن علاقته بالرضي ليست على ما يرام ،

(٨٢) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٧٦/١ .

(٨٣) نفس المصدر : ١٥٦/٢ ، ١٦٠ .

بالنشوة الغامرة (٨٨) ، وهكذا تؤثر أوضاع القرن الرابع الهجري في الرضي ، وتطبع شعره الحماسي بطابعها ، وتسمه بميسمها ، وهكذا يستغل مناسبات المدح ليعبر عن ثورته على قيم عصره ، وأبناء عصره ، ممن ناصبوه العدا ، أو نافسوه على مطمح ، ولا يفوته أن يصور في مناسبات معينة بعض الأحداث التاريخية ، وأن يقف منها موقفاً جاداً ، ينفع فيه بأحداثها . ومن الأحداث الكبرى التي سجلها الشريف الرضي ، وانفعل بها وتحمس ، وأعطت مع غيرها قيمة تاريخية لشعره ، قصة مقتل باذ الكردي الخارجي .

فقد مدح الوزير أبا منصور بن صالح في قصيدة غير مؤرخة (٨٩) ، ولكنه لم ينس فيها هزيمة باذ الكردي الخارجي بالجزيرة والموصل ، حيث أتى على هذا الحدث التاريخي ، وصوره ، واصفاً مقتل باذ وصورته مع أشياعه معلقين على الأعواد .

وهو يعطينا في هذا الجانب مثلاً لوصفه الحربي ، وبكلمة أدق لحماسته الحربية ، فينفع بالحدث ، ويندمج فيه ، متأثراً بنشوة النصر ، تسعفه ملكته الفنية ، معتمداً على ما يسمعه من الوقائع والأحداث ، وهو هنا يختلف عن المتنبي الذي تمرس بمثل هذه الأحداث ، وخبر حاولها ومرها ، كما يختلف عنه في أن الأخير كانت له قصائد في الوصف الحربي قائمة بذاتها ، بينما كان الرضي يصور المعارك الحربية في تضاعيف قصائده .

ولما طفئ باذ وأضرم ناره
على الغدر ، أن الفسادين ذئاب
بعثت له حتفاً بغير طليعة
تخب به قب البطون عراب
نزاع يعجمن الشكيم وقد جرى
على كل فيفاء دم ولعاب
خواطر بالأيدي ، لواعب بالقنا
وللطعن في لبائهن لعاب

- (٨٨) ديوان الرضي - دار صادر : ٢١٠/١ .
(٨٩) أرجح أن يكون الرضي قد نظم هذه القصيدة سنة (٢٨٠ هـ) لأن باذ الكردي استولى على الموصل سنة (٢٧٧ هـ) وهزمه الديلم فيها سنة (٢٧٤ هـ) ولكنه عاود القتال سنة (٢٧٧ هـ) ثم قتل سنة (٢٨٠ هـ) ، فختمت حياته ، وفي القصيدة ارهاص بموته ، وصورة له ولا شياعه وهم معلقون على الأعواد : انظر : الكامل لابن الأثير ٧٠/٩ حوادث سنة (٢٨٠ هـ) .
(٩٠) ديوان الرضي - دار صادر : ٦٧/١ ، ٢٨٨/٢ .

كما أن صمصام الدولة يسمل في هذه السنة أيضاً ، وبنو حمدان يعودون إلى الموصل . . . هذه أحداث لها شأن في حياة الشاعر ، ولها تأثير بالغ في نفسه ، فالقادر بالله غريمه إذا ما قيس بغيره من الخلفاء ، وبنو حمدان شيعته ، ومن العرب الذين كان لهم شأن في تصريف الأمور وتوجيهها ، وقد كانوا مع غيرهم من القبائل العربية ، يضيّقون على البويهيين ، وعلى الخلافة في بغداد ، وربما امتزجت هذه الأحداث وغيرها في نفس الشريف الرضي ، وربما انطلق عفويًا بمثل هذه الحماسة التي تقدمت .

في هذا العام أيضاً ، مدح والده ، وهناه بعيد الأضحى ، وعارض لامية أبي الطيب المتنبي (٨٤) وتحمس قائلاً (٨٥) :

ومن عجب غضي عن الشيب جازعاً
وكري إذا لاقى الرعيل رعيلاً
ولي نفس يطفى إذا ما رددته
فيعرقني عرق المدى ويقول (٨٦)
وما تسع الأضلاع ريعان زفرة
يكاد لها قلب الجليد يزول
وما ذاك من وجدر ، خلا أن همة
عنائي بها في الواجد ينطول
ثم عرّض بعدوه وعدو أبيه ، وعبر عن نشوة النصر ، متحمساً ، واصفاً موقف هذا العدو من أبيه ، ثم زواله (٨٧) :

وطاغ ، وعاء الشر بين ضلوعه
وداء من الفل القديم دخيل
رماك وبين العين والعين حاجز
وقال وراء الغيب فيك وقيل
فما زلت تستوفي مرامي ، والقوى
تقطع ، والاقبال عنه يميل
إلى أن أطلعت الله ثم رميته
فلم تفض إلا والرمي قتيل

وفعل مثل ذلك عام (٣٨٠ هـ) عندما ردت النقابة ، وأمارة الحج ، والنظر في المظالم ، إلى والده ، فقال قصيدة ابتهج بها ، ومزج الحماسة

- (٨٤) ديوان المتنبي - شرح البرقوقى : ٢١٧/٣ .
(٨٥) ديوان الرضي - دار صادر : ١٦١/٢ .
(٨٦) يعرّقني : يأكل لحمي ، أو يأخذ من لحمي كما تأخذ المدى ، أي السكاكين .
(٨٧) ديوان الرضي - دار صادر : ١٦٣/٢ .

الفاضب الذي تعتصره الأحقاد فيتخبط في ضربه ،
ويخلط بين المضروب والمطعون .

وهكذا يستمر الشريف الرضي متحمسا
خلال قصائد المدح ، متأثرا بالأحداث الخاصة
والعامة ، منسجما مع الاطوار التي مر بها في حياته ،
في حال غمته ، وأمله ، وآسسه .

ولو استقصينا هذه القصائد جميعا ، لرأينا
الخط البياني لحماسته فيها ، يرتفع وينخفض ،
تعبا للموقف .

ولقد حاولت ذلك ، فلاحظت ان الحماسة في
قصائد المدح عند الرضي تكاد تختفي في الأعوام
(٣٨٨ - ٣٩٨ هـ) (٩٢) وهذه الفترة من حياة الرضي
هي فترة يأس وانطواء ، وخيبة في الآمال التي
تفنى بها ، وتحمس من أجلها ، حيث كانت من أقوى
العوامل في تفتيح قريحته وإبداعه . فقد ترسبت
في قاع نفسه ، وفي أخريات حياته خصوصا ،
خيبة قاتلة ، ولكن روافد نسبه العريق ، ومنزلته
الاجتماعية ، وفساد الاحوال ، الحت عليه ان ينكر
هذه الخيبة بين حين وآخر ، فأنكرها فعلا ، وظل
قنوطه وآسسه ، فيهما شيء من التحرك والتأمل ،
ولكنه يبدو لي انه كان مكابرا في ذلك ، يخادع
نفسه ، ويخادع الناس .

واذا كان الشريف الرضي يتحمس في مدحه ،
وينفذ من خلاله الى اغراضه السياسية ، وفوراته
العاطفية ، مصورا تسخطه ، واحلامه الملحمية ،
فانه يتحمس كذلك في قصائد الرثاء .

ولكنه كثيرا ما يبدو متجهم الاساري ، يمتلكه
شعور مأساوي حزين ، ويقلب عليه الندب
والنواح .

وحماسته في قصائد رثائه أقل من حماسته في
قصائد مدحه ، وليس ذلك بغريب ، فلعل فرق
ما بين الموقفين ينسي الشاعر ثورته ، وبكلمة أدق ،
فانه يجعله يمزج هذه الثورة بالانشيج ، ويصبغها
بالندب والنواح .

والرضي يفعل ذلك كثيرا عندما يرثي جده
الحسين ، فتشخص في ذهنه المأساة التاريخية
الدامية التي « صبت ... ولا تزال تصبغ أدب
الشيعه بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح
المبتهل ، والعصبية الحاقدة ، وامتدته بمدد زاهر
من المعاني والاخيلة والعواطف ، فغزت مادته ،

(٩٢) ديوان الرضي - دار صادر : ٥٤٩/١ ، ٥٧٤ ، ٥٩٩ ،
٤٢٠ و ١٢١/٢ ، ٣٤٦ ، ٤٩٢ .

ولا أرض الآ وهي تحثو ترابها
عليه ، وترميهِ رُباً وعقاب
فولي ووليت الجياد طلابه
وسالت مروج بالثنا وشعاب
تغاسس في بحر الحديد وخلفه
لماء المنايا زخرة وعباب

* ولا يخفى ان علاقة الرضي بالخليفة الطائع
الله ، كانت جيدة ، فقد كان يرى فيه البقية الباقية
من الخلافة العباسية ، فكثيرا ما كانت آماله تنتعش
عندما يمدحه ويهنئه بالاعياد ، ولذلك كانت حادثة
القبض عليه سنة (٣٨١ هـ) كأنها الصاعقة نزلت
على الرضي ، وقد زاد من هولها ، وعمق جرحها
في نفسه ، انه كان حاضرا في المجلس عندما قبض
على الطائع ، ثم كان اول الهاربين ، فسجل الموقف
في قصيدة مؤلمة ، تحمس في آخرها ، ويبدو ان
الحماسة والثورة فيها ، كانت ضد الاقارب من
اولئك الذين تملحوا به ، بسبب هروبه ، وربما
ذكروه بسوء للحادث نفسه .

ولا تبدو الحماسة في الأبيات انها ثار للطائع
او ثورة من أجله ، ولا يهمننا هذا في قليل أو كثير
بقدر ما يهمننا ان الرضي أثاره الموقف ، وسجل
الحادثة التاريخية المشهورة ، وفسر لنا جانباً من
دواعي شعره الحماسي .

قال الرضي (٩١) :

توقعوها فقد شبت بوارقها
بعارض كصريم الليل مدجون
إذا غدا الأفق الغربي مختمراً
من القبار ، فظنوا بي ، وظنوني
لتنظرني مشيحاً في أوائلها
يغيب بي النقع أحياناً ويدنيني
لا تعرفوني إلا بالطعمان اذا
أضحى لثامي معصوباً بمرنيني
إقدام غضبان كضته صفائنه
فما يخلط مضروباً بمطمعون
فان أصب فمقادير محجزة
وان أصب فعلى الطير الميامين

ولا حاجة بنا الى استجلاء الموقف النفسي
الذي كان يعانيه الرضي ازاء هذه الحادثة ، فالبيت
ما قبل الأخير يصور بوضوح اي انسان مازوم هذا

(٩١) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٤٧/٢ .

واتسع مجال القول فيه ، وغدونا أمام أدب تبعته عاطفتان بارزتان - عاطفة الحزن، وعاطفة الغضب - تصدره الأولى حزينا باكيا ، وتبعته الثانية قويا ثائرا (٩٣) .

واللرزي قصيدة رثاء في جده الحسين ، كتبها سنة (٣٧٧ هـ) في عاشوراء ، وقد استهلها بمقدمة حماسية ، وعبر فيها عن إيمانه بحريته ، وعدم اكترائه بما يتهده من خطوب فقال (٩٤) :

صاحت بدودي بفداد فانسني

تقلبي في ظهور الخيل والعير

وكلما هججعت بي عن منازلها

عارضتها بحنان غير مدعور

اطفى على قاطنيتها غير مكرثر

وافعل الفعل فيها غير مأمور

خطب يهددني بالبعد عن وطني

وما خلقت لغير السرج والكور

ونلاحظ ان الشريف الرضي يتخذ من يوم عاشوراء منطلقا للتعبير عن موقف سياسي ، ويكشف عن طبيعة صلته بأبناء عصره ، وهو على عادته في استعراض آلام الكارثة ، يعرج على بني أمية ، مهددا ، متوعدا بيوم عظيم (٩٥) :

بني أمية ما الأسياف نائمة

عن شاهر في اقاصي الارض موتور

والبارقات تلوى في مقامدها

والسباقات تمطى في المضامير

إنني لأرقب يوما لاخفاء له

عريان يقلق منه كل مفرور

وللصوارم ما شاءت مضاربها

من الرقاب شراب غير منزور

ولكن أين هم الأمويون ؟ ومن المقصود اذا ؟ يبدو لي ان الشريف الرضي يوري ، ويعمم ، ويرمز ، ويقصد كل من ينزع العلويين الخلافة ، سواء أكانوا بويهيين أم عباسيين .

وقد نجح الشريف الرضي في هذه القصيدة سياسيا ، كما نجح وأبدع فنيا ، اذ أنه عبر بأصالة ، وكان رائعا في الحالتين .

(٩٣) عبد الحسيب طه حميدة : (أدب الشيعة الى نهاية القرن الثاني الهجري) ص ١٥٢ ، مطبعة السعادة .

(٩٤) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٨٧/١ .

(٩٥) نفس المصدر : ٤٩٢/١ .

أما توقعه المتكرر للثورة المدمرة ، والايمان التي ستوائيه ، فيبدو انه ينبع أصلا ، لا من ثقة بنفسه المحاربة القوية ، لأنه لم يعرف عنه ذلك ، وإنما ينبع مما وقر في نفسه من ايمان بالتوقع الشعبي الشيعي في عودة الامام المنتظر .

واللرزي قصيدة جيدة أخرى في رثاء جده الحسين ، كتبها في يوم عاشوراء أيضا سنة (٣٩١ هـ) وجرت حادثة كربلاء الى الحديث عن الخلافة ، والى حملة شعواء على بني أمية ، ثم عرج بعدها مفتخرا بأمجاد آبائه ومناقبهم ، وختم القصيدة بشهقة غاضبة ثائرة وقال (٩٦) :

إن الخلافة أصبحت مزوية

عن شعبها ، ببياضها وسودها

طمست منابرها علوج أمية

تنزرو ذنابهم على أعوادها

هي صفوة الله التي أوصى لها

وقضى أوامره إلى أمجادها

أخذت بأطراف الفخار ، فعاذر

أن يصبح الثقلان من حسادها

الزهد والاحلام في فناكها

والفتك لولا الله في زهادها

عصب يقمط بالنجاد وليدها

ومهود صبيتها ظهور جيادها

تروي مناقب فضلها أعداؤها

أبدأ وتسندنه الى أضدادها

يا غيرة الله اغضبي لنبيه

وتزحزحي بالببيض عن أغمادها

من عصبه ضاعت دماء محمد

وبنيه بين يزيدا وزيادها

والرضي وان كان في ظاهر الأمر يفتخر ويتمجد ، الا انه في الحقيقة يحرض على الثورة ، ويدعو اليها ، وفخره في هذه الابيات ليس تقليديا ، ولا باهتا ، فهو حماسي صارخ ، يتفجر من اعماق ثائرة حزينة غاضبه ، وما الحماسة في جوهرها الا « لون فاقع من ألوان الفخر » (٩٧)

أما في هذه « العصب » التي يقمط وليدها بالنجاد ، وتكون مهود صبيتها ظهور الجياد ، فهو يبدو مبالغا ، ولكن مبالغته تصدر عن ايمان عميق ،

(٩٦) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٦٢/١ .

(٩٧) شعر الحرب في ادب العرب ، زكي المحاسني : ص ٣٢٩ .

نفائب ثم تغلبنا الليالي
وكم يبقى الرمي على النبال
وقد عارض فيها المتنبي ، واصطنع أسلوبه ،
والم بمطلع لاميته (١٠٤) :

نعد الشرفية والعوالي
وتقتلنا المنون بلا قتال
ورثي الشريف بعض رؤساء القبائل العربية
التي لعبت دورا هاما في توجيه سياسة القرن الرابع
الهجري ، وعبر عن جانب من حياته خطيره يفسر
بعض شعره الحماسي ، أو يعين على تفسيره ، ومن
ابرز هؤلاء العرب الذين رثاهم ، أبو طاهر ابراهيم
بن ناصر الدولة الحمداني ، الذي قتله أبو الذواد
العقيلي سنة (٣٨٢ هـ) ، وكان صديق الرضي ،
ومن شيعته ، بل ممن كان يرى فيهم بعض احلامه
في الطموح والسيادة ، قال الرضي (١٠٥) :

القي السلاح ربيعة بن نزار
أودى الردي بقريعك المغوار
وترجلي عن كل أجرد سباح
ميل الرقاب نواكس الأبصار
ودعي الاعنة من اكفك ، إنها
فقدت مصرفها ليوم مفار

والشريف الرضي لا يذم هنا بني ربيعة ، ولا
يهجوهم ، ولكنه يقصد الى استشارة نخوتهم ،
وتحريضهم للثار ، وهو يذكرنا بقريط بن أنيف في
استنهاض قومه واستشارة نخوتهم (١٠٦) .
علي ان الرضي في هذه القصيدة ينطلق من
احساس بوجودان جماعي حتى لكان القضية تعنيه
شخصيا ، وكان النائية نائبة بالذات حين يقول :

اليوم صرحت النوائب كيدها
فينا ، وبان تحامل الاقدار

ثم يخاطب تغلباً عن نجمها الذي أفل ، وبطلها
الذي افتقدته سوح القتال ، متصوراً أن كل شيء
من أمر الجهاد والمروعة والنجدة قد تعطل ، فيصرخ ،
بل يشهق في استفهام ، فيه التحفز ، وفيه الحيرة ،
وفيه المطالبة بالثار أيضا ، بل فيه الثورة
نفسها (١٠٧) :

ولذلك لم يخرج بها عن عمود الاجادة ، وقد نواخذ
على هذه المبالغة ، ولكننا لا نغير شيئا من رأى
الشريف الرضي ، فهو في معرض المصاب الكبير الذي
يشير في نفسه كل نوازع الاعتداد والاعتزاز والفخر
بمآثر اجداده ، كما يشير فيه كوامن الحزن والألم .

وقد رثي الشريف الرضي كثيرا من
الشخصيات التي كان لها شأن في عصره ، فالتم
بالحماسة في مواقف مختلفة ، ولكنه لم يبلغ فيها
ما بلغه في رثاء جده الحسين ، فقد رثي والدته
(٣٨٥ هـ) (٩٨) وعبر عن صبره ، وتجلده ، وقوته ،
وقوة أشياعه وقال :

أبدي التجلد للعدو ، ولو درى
بتملمي ، لقد اشتفى أعدائي
ما كنت أذخر في فداك رغبة
لو كان يرجع ميت بفداء
لو كان يدفع ذا الحمام بقوة
لتكدست عصب وراء لوائي
بمدربين على القراع تفيأوا
ظل الرماح لكل يوم لقاء

ثم عبر عن ثورة حزنه ، وتحرقه ، بسبب
المصاب ، في نبرة يبدو فيها شديداً هائجا وهو
يقول :

كم أمر لي بالتصبر هاج لي
دأء ، وقدر أن ذاك دوائسي
آوى الى برد الظلال كأنني
لتحرقني آوى الى الرمضاء
واهب من طيب المنام تفزعا
فزع اللديغ نبا عن الاغفاء

كما رثي علي بن الحسين الزينبي نقيب
العباسيين (٣٨٤ هـ) (٩٩) ، والصاحب بن عباد
(٣٨٥ هـ) (١٠٠) ، وإباه (٤٠٠ هـ) (١٠١) وخاله
(٣٩١ هـ) (١٠٢) ، وكان في أكثرها محض راث ، يلم
بالفاظ الحرب والثورة ولفتها وآلاتها ، ولكنه لا يرقى
الى روح الحماسة والثورة الاصيلية .

ومن امثلة ذلك ، رثاؤه لنقية بنت سيف
الدولة (٣٩٩ هـ) في قصيدة مطلعها (١٠٣) .

- (١.٤) ديوان المتنبي - شرح البرفوقي : ١٤٠/٣ .
(١.٥) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٩٠/١ ، ٣٦٦/١ .
(١.٦) جاء في شرح ديوان الحماسة - المرزوقي : انها لاحد
شعراء بلعنير : ٢٢/١ .
(١.٧) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٩٢/١ .

- (٩٨) ديوان الرضي - دار صادر : ٢٦/١ .
(٩٩) ديوان الرضي - دار صادر : ١٤٢/١ .
(١.٠) نفس المصدر : ٢٠١/١ .
(١.١) نفس المصدر : ٢٩٠/٢ .
(١.٢) نفس المصدر : ١٤٦/١ .
(١.٣) ديوان الرضي - دار صادر : ٢١٢/٢ .

أين القنا مركوزة تهفو بها
عذب البنود ، يطرن كل مطار
أين الجياد ملن من طول السرى
يقدفن بالمهترات والأمهار
من معشر غلب الرجال ، جحاجح
غلبوا على الأقدار والاضطار
من كل أروع طاعن أو ضارب
أو واهب أو خالع أو قار
ركبوا رماحهم الى اغراضهم
أمم العلى ، وجروا بغير عشار
واستنزلوا أرزاقهم لسيوفهم
فغنوا بغير مذلة وصغار
ثم رثى صديقه أبا حسان المقلد بن المسيب
سنة (٣٩١ هـ) وقال (١٠٨) :

أعامر لا لليوم أنت ولا القد
تقلدت ذل الدهر بعد المقلد (١٠٩)
وأصبحت كالمخطوم من بعد عزة
متى قيد مشاء على الضيم ينقد
فان سار للأعداء غيرك فاريمى
وان قام للعلياء غيرك فاقعدى (١١٠)
وهو في هذه الأبيات يحرض على الثورة ،
ويستنهض بني عامر الى طلب الثار ، ويفعل كما
فعل في قصيدته السابقة في رثاء أبي طاهر بن ناصر
الدولة الحمداني .
ثم يعرض الشريف للأعداء الذين قتلوا المقلد
غيلة ويقول (١١١) :

فلا نعم الأعداء يوماً بعيشة
ولا حضروا إلا بالأم مشهد
ولا صادفوا في الدهر منجى لخائف
ولا وجدوا في الأرض مأوى لمطرّد
ولا شربوا إلا دماً بعده ، ولا
تحايوا بغير الزاعبي المقصد

(١٠٨) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٦٩/١ .
(١٠٩) بخطي جامع الديوان عندما يتصور ان الشاعر يخاطب
شخصاً اسمه (عامر) فيحرك (تاء) « أنت » ، وتقلدت ،
وأصبحت ، وغرك « (بالفتح) بينما المقصود نداء قبيلة
بني عامر ، والتاء للتانيث .
(١١٠) في الديوان « أقعد » والصحيح ما أثبتناه على ضوء ما
تقدم لكونه يخاطب القبيلة .

ثم يختتم القصيدة ، مصوراً ان الردى غال
أسرته ، محطراً بأي يد يرمى الزمان ، وبأي ساعد ،
معبراً عن تجلد في في طبعه :

وما كان صبري عنهم من جلادة
أبى الوجد لي ، بل عادة من تجلدي

وما دمننا بصدد الكلام عن الاحداث الكبرى
في حياة الشريف الرضي ، فانه من المناسب جداً
ان نأتي على رثائه لشخصيتين كان لهما اثر ايما اثر
في حياته ، ثم افتقدتهما ، فكان لفقدتهما وقع عميق
في نفسه ، وأعني بهاتين الشخصيتين أبا اسحق
الصائبي ، وأبا العوام .

أما الصائبي ، فقد كانت علاقته به علاقة
أديب بأديب ، وصديق حميم ، بصديق حميم ،
ثم تعدت ذلك الى ما هو أبعد اثراً في نفس الشريف
الرضي .

والجدير بالملاحظة ان أبا اسحق ، كان يتوسم
في الرضي ملامح الزعامة ، والرياسة ، ويشير في
نفسه نوازع الطموح ، حتى انه كان من أقوى
العوامل في ترسيخ نوازع الطموح نحو الخلافة في
نفس الرضي .

ففي قصيدة بعث بها الى الصائبي جواباً على
قصيدة كتبها الاخير اليه ، يقول الرضي متحمساً ،
مفصلاً عن ثورته التي سيعلمها من أجل اليوم
المرتقب (١١٢) .

وان قعودي أرقب اليوم أو غدا
لعجز ، فما الإبطاء بالنهضان
سأترك في سمع الزمان دويها
بقرعي ضراب صادق وطعان

وقد رثى الشريف الرضي ، أبا اسحق
الصائبي في أكثر من قصيدة ، أشهرها داليتة ، وقد
تناول فيها الموضوع من جانب علاقته الشخصية
بالصائبي الأديب الصديق ، الذي طالما أثار في نفسه
الطماع نحو المجد ، وجعله يرمى ببصره نحو البعيد
البعيد . وعلى طريقة الرضي في رثاء والدته ، خاطب
الفقيد وهو نائر حزين (١١٣) .

لو كنت تفدي لافتدتك فوارس
مطروا يعارض كل يوم طراد

(١١١) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٧١/١ .
(١١٢) ديوان الرضي - دار صادر : ٥٤/٢ . وانظر : ٢٨/٢ .
(١١٣) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٨١/١ .

وتفجع عليه ، وصوره في صورة البطل
المحارب ، واضعا نفسه في صميم التجربة ،
متسانلا ، مكررا :

من للبلاغة والفصاحة إن همي
ذلك القمام ، وعب ذلك الوادي
من للملوك يجز في أعدائها
بظبي من القول البليغ حداد
من للممالك لا يزال يلهمها
بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزل رماحها
ويرد رعلتها بغير جلاد

ولرب قائل يقول : إن الرضي لم يفعل
شيئا غير اصطناعية لغة الحرب ، تسعفه ملكته ،
وقدرته الفنية في تصوير الصابيء الأديب البليغ ،
في صورة البطل الذي يصل ببلافته ، بظبي من
القول الفصيح ، والرأي السديد ، يجره به الأعداء ،
ويلم به الممالك ، ويرد الجحافل بغير جلاد .

ومثل هذا يقول وارد أن نحن طفونا على
السطح ، وتعاملنا مع الالفاظ في ظاهرها ، أما
إذا نفذنا الى الأعماق ، ووقفنا موقف الشاعر ،
وتفحصنا روحه وتجربته ، فأننا لا يمكننا إلا أن
نلمحه مندمجا في الصورة التي أوردتها في أبياته ،
يصدر عن ذات منفعة نائرة ، ومشاعر هائجة
متوترة .

الا انني لا انكر أن الرضي كان أحيانا يصطنع
صور البطولة بقدره الشاعر الفنان ، ولكنه يبتعد
عن الحماسة ، ويظل مجرد وصاف ، وقد فعل
مثل ذلك في نفس هذه القصيدة ، فهو يصف بلاغة
الصابيء والفاظه بأنها تقدم أقدام الجيوش ، وتصمد
صمود الإبطال حين يقول (١١٤) :

يقدم إقدام الجيوش ، وباطل

أن ينهزم هزائم الأجناد

ومع أن هذه الصورة حربية في لغتها
والفاظها ، إلا أنها بعيدة كل البعد عن الحماسة .

وأما رثاء الشريف الرضي لأبي العوام ، فقد
كان هو الآخر مدعاة لثورته ، وعاملا من عوامل
تحركه وتململه ، ونزوعه نزوعا بدويا ، فمن هو أبو
العوام ؟ وما هي علاقته بالشريف الرضي ؟

(١١٤) ديوان الرضي - دار صادر : ٢٨٢/١ ، ٥٨٠/٢ - ٥٨١ ،
٢١/١ .

في ديوان الرضي (١١٥) يبدو أن أبا العوام ،
وعمرأ ، وابن ليلي ، هو أحد زعماء البدو ،
وصديق الرضي ، وقيل أنه كان دليلا له في طريق
الحج ، وداعية له ، وقد قتله رجل من تميم .

وفي ديوان الرضي قصيدة يفصح فيها عن أن
أبا العوام كان له شأن ، وكان يطمح الى أمر دونه
الموت (١١٦) :

أرى إبل العوام تحدى على الطوى

وتأكل حوذان الطريق المناسم (١١٧)

وتطمى على الأغذاذ أشداق خيله

وتشرب من أفواههن الشكائم (١١٨)

يحاول أمرا يرمق الموت دونه

لقد زل عنه ما تروم المرام

فأبو العوام بدوي ثائر طامح ، كانت له علاقة
بالرضي ، ربما وثقتها وعززتها رحلات الرضي ،
ومروءه بنجد ، ومصاحبته للأدلاء من البدو في
مواسم الحج التي كانت بالنسبة للرضي تجربة
واقعية ، تدرس خلالها بالأحوال والمفاسد ،
فأشبع روحه بحب الحرية ، وجعلته يتذوق طعم
الرعاية ، ولما كان الواقع لم يسعفه ، نفس عن هذا
كله في شعره ، فجاء مصورا لجانب مهم من حياته
ومفسرا لركن أساسي من أركان حماسه .

على أن كتب التاريخ لا تعطينا صورة واضحة
لشخصية أبي العوام ولكن الشريف الرضي يكشف
عنها ، ويرسمها في قصائده على النحو الذي
تقدم ، فقد مدحه في حياته ، ورثاه في مماته ، في
قصائد فريدة جميلة ، ومن أجود مرثيه قصيدة
مطلعها (١١٩) :

لعمرو الطير يوم توى ابن ليلي

لقد عكفت على لحم كريم

وهو مطلع بدوي « هندي » يذكرنا بأبي
خراش (١٢٠) .

وتكاد تكون القصيدة كلها جارية على نفس
حماسي بدوي ممتزج بالأسى والالام على صاحبه

(١١٥) ديوان الرضي : ٥٦٧/١ ، ٥٨٩ ، ٦٧/٢ ، ٣١٧ .

(١١٦) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٦٥/٢ .

(١١٧) الطوى : الجوع . الحوذان : نبات طيب الطعم في أصله
صفرة . المناسم : الواحد منسم : خف البعر .

(١١٨) الأغذاذ : من أغد السير : أسرع .

(١١٩) ديوان الرضي - دار صادر : ٣١٧/٢ .

(١٢٠) ديوان الهذليين : ص ١٥٤ . قسم ٢ - الدار القومية -
القاهرة .

وعضده ، وأمله في مطمح البعيد ، هذا الصاحب
الذي يقول عنه ، وعن النوائب التي اختطفته بطعنة
تميمية غادرة :

أجزع إن حطمن حجاز أنفي

وهن يقصن أعتاق القروم (١٢١)

ومالي لا أراع وقد رمتني

يد الجلي بقارعة التميمي (١٢٢)

ثم يشق متسائلا :

أجدك أن ترى بعد ابن ليلي

طعنا بين رامة والغميم

ولا نقعا يثور على مغير

ولا بيتا يظل على مقيم

ولا نج الصهيل مسومات

مججن دما على علك الشكيم

وللرضي قصيدة أخرى جميلة في رثاء أبي
العوام ، يصف فيها بطولته ، ويهدر على البحر
الوافر ، ويقيمها على قافية الجيم المطلقة ، ويوغل
في شعر البداوة مبني ومعنى ويقول (١٢٣) :

ومظلمة من الغمرات عطشي

جملت لها من القضب ابتلاجا

ومائلة اقلت لها كمويا

وقد شغرت على القوم اعوجاجا

وداهية تشول بالدنابي

غدوت لباب مطلعها رتاجا

ومعضلة كفيت ، وذات وهي

شدت لها العراقي والعنجا (١٢٤)

ومنها ، وهي أكثر ايفالا في شعر البداوة ، وأدل على
احتماسه قوله :

برغمي أن يكن قنا تميم

عزين على الدنائب منك حاجا

حميت منابت الرمام منهم

واخلت الأناعم والنباجا (١٢٥)

(١٢١) يقصن : يكسرن .

(١٢٢) يشير الى متمم بن نوره التميمي ، والقارعة التي أصيب
بها هي مقتل أخيه مالك ، قتله خالد بن الوليد في حرب
الردة .

(١٢٣) ديوان الرضي - دار صادر : ٢٣٧/١ .

(١٢٤) العراقي : الواحدة عرقوة : خشبة الدلو . العنجا :
حبلها .

(١٢٥) الرمام : نبت الغبر . النباج : قرية بالبادية .

منعتهم اللقاح ، وملقحات
يكاد الخوف يمنحها النتاجا
فما لفحت لهم الا اختلاسا
ولا ولدت لهم الا خداجا (١٢٦)

وخير ميزة في هذه القصائد التي قالها الرضي
في أبي العوام انه « جردها من اسلوبه التقليدي في
الرثاء ، وجعلها نسيج وحدها حين لأم بينها وبين
الذي قيلت فيه ، وأقامها على نسق بدوي خالص ،
فالروح بدوية ، والطريقة بدوية كذلك ، وبعض
المعاني التي يرددها فيها يدل على قوة صلة الشريف
بشعر البداوة ، وبخاصة شعر الهذليين » (١٢٧) .

وقد رسخ هذه الروح في نفسه ، وفي شعره ،
قراءته للمتنبي أولا ، وتأثره به ، في الشعر ،
والوسائل ، والغايات ، ثم تمرسه بامارة الحج في
اعوام طويلة من عمره ، ولقد وثقها أكثر من هذا
كله ، وبشكل عنيف ، طموحه للخلافة ، وشعوره
بأن البداوة صار لها اليد الكبرى في توجيه
السياسة ، ثم نفوره من بغداد ، وضيقة بالحياة
فيها ، كل ذلك زاد لصوقه بالبداوة ، لانه وجد
فيها بشكل عفوي ، المنبع الاصيل ، والمرجع
الوحيد ، لشعوره العربي ، ولراحة نفسه ، ورضا
قلبه وضميره ، ونحن لا ننسى في هذا المقام ، ثقافته
الخاصة ، وبيئته الخاصة ، وعلاقته بالخط النقدي ،
وبالنزعة التي مجدت روح البداوة ، واتجهت
نحوها في الشكل ، فلقد كان لهذا أيضا اثر كبير
في توجيه شعره ، وفي طبعه بطابع البداوة (١٢٨) .

وما دامت الصلة وثيقة بين طموح الشريف
الرضي ، وبين نزوعه البدوي العربي ، وما دام هذا
الطموح بمثابة العامل الأكبر في توجيه شعره ، وفي
تحركه ، واندفاعه ، وتحديه ، وتمرده ، على واقع
عصره ، فجدير بالباحث أن ينظر مليا في هذا
الطموح ، وأن يقف عنده ، فهو دون أدنى شك ،
يلقي ضوء كاشفا على ثورة الرضي ، ويفسر الجانب
الأكبر من حماسه .

ولو استقصينا شعر الشريف الرضي من بدئه
حتى نهايته ، لرأينا أن روح الطموح والثورة تكاد
تلازمه ، وأن الفخر الحماسي بملكاته ، وقدراته
وامجاده ، وشعوره بالأنفة ، والكبرياء ، يكاد يطفئ

(١٢٦) الخداج : القاء الناقة ولدها قبل تمامه .

(١٢٧) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ٢١٧ . وانظر
ديوان الهذليين : ق ١ : ص ٨٢ . ق ٢ : ص ٩٩ .
ق ٢ : ص ١٣٠ .

(١٢٨) الشريف الرضي ، احسان عباس : ص ٢٢٣ - ٢٢٧ .

على شعره في هذا الجانب ، حتى يبدو لنا وكان
هذا الشعور ولد معه ، لا يتصنعه ، ولا يتكلفه .
على ان طموحه في بواكير حياته ، كان غامضا ، غير
محدد ، فهو تارة المجد (١٢٩) :

المجد يعلم أن المجد من أربى
ولو تماذيت في غي وفي لعب
إني لمن معشر ، أن جمعوا لعل
تفرقوا عن نبي ، أو وصي نبي
إذا هممت ففتش عن شبا هممي
تجده في مهجات الأنجم الشهب
وإن عزمت فعزمي يستحيل قذى
تدمي مسالكه في أعين النوب
يقول جامع ديوانه : انه قالها وسنة فوق
العشر بقليل .

وإذا كانت « هموم المجد » شغلت الرضي في
هذه السن المبكرة ، فان قضية الزعامة داعبت
أحلامه ، ورسخت في نفسه ، وهو لم يتجاوز
العشرين ، فإذا به يحلم بالسيادة ، « ورعي الناس
عن رعي القروم » وإذا به يلتمس العلى بالعرب أو
بغير العرب (١٣٠) :

وعن قرب سيشغلني زماني
برعي الناس عن رعي القروم
ومالي من لقاء الموت بد
فمالي لا أشد له حزيمي
سألتمس العلى إما بعرب
يروون اللهاذم أو بـروم
وتارة أخرى يكون طموح الرضي الى العلياء (١٣١) :
ما أنا للعلياء إن لم يكن
من ولدي ما كان من والدي
ولا مشت بي الخيل إن لم أطأ
سرير هذا الأغلب الماجد

وبلاحظ في البيت الاخير انه يعرض
بالخليفة . ومن هذه النقطة يبدو طموحه أكثر
وضوحا ، وهو يرمي الى غاية بعيدة ، دونها
الحمام (١٣٢) :

- (١٢٩) ديوان الرضي - دار صادر : ١١٢/١ ، ١٥١/٢ .
(١٣٠) ديوان الرضي : ٤١١/٢ .
(١٣١) ديوان الرضي - دار صادر : ٣٤٨/١ .
(١٣٢) نفس المصدر : ١٩/١ .

سامضي للتي لا عيب فيها
وان لم استغفد إلا عناء
وأطلب غاية إن طوحت بي
أصابني بي الحمام أو العلاء

فقد تكون الخلافة ، أو النقابة ، وهي على أية
حال ، غاية سامية رفيعة ، بعيدة المنال ، أو هي
الخلافة نفسها ، وقد أفصح الشريف عن هذا عندما
تقلد النقابة قائلاً (١٣٣) :

قلق العدو وقد حظيت برتبة
تعلو على النظراء والامثال
لو كنت أقنع بالنقابة وحدها
لفضضت دون بلوغها آمالي
لكن لي نفساً تتوق الى التي
ما بعد أعلاها مقام عال

والشريف الرضي يتحمس لهذا كله ، وتشتد
حماسته ، وتلهب ، وقد يفتخر ، مصوراً نفسه بطلا
يخوض الغمرات ، ويصارع الأهوال ، مستغرقاً في
حلم اليقظة بكل كيانه ، حتى اذا عاد الى نفسه ، ندّ
عنه استفهام ، فيه نفاذ الصبر وفيه ثورة
النفس (١٣٤) :

الى كم ذا التردد في الأماني
ولم يلوى بناظري السراب
ولا نقع يثار ولا قتام
ولا طعن يشب ولا ضراب
ولا خيل معقدة النواصي
يموج على شكائهما اللعاب
وحتى اذا استنفد الحلم الذي يعيشه ، ووجد
ان المطامح لا تتحقق بالأمال ولا بالأقوال ، هتف من
جديد :

سأخطبها بحدّ السيف فعلاً
إذا لم يفن قول أو خطاب
وأخذها وإن رغمت أنوف
مغالية ، وإن ذلت رقاب

والشريف الرضي ، الطامح ، المتحمس في طلب
العلی والمجد ، والغايات العظام ، في شكل نقابة ،
أو خلافة ، أو امارة حج ، يكون أقوى حماسة وأشد ،
إذا مس طمّاحه بسوء ، وهددت آماله بالخطر .

- (١٣٣) ديوان الرضي - دار صادر : ١٨٢/٢ .
(١٣٤) نفس المصدر : ١٢٦/١ - ١٢٧ .

الذهبي ، وهم الذين أقاموا السد المنيع بينه وبين مطامحه . ويبدو هذا واضحا في فخره الحماسي الذي هو في حقيقته تمجيد لمشاعر الرجولة والبطولة في شخص الشاعر ، وقد أتينا على الكثير منه في هذا الفصل ، فهو قوام حماسته ، وهو ميثوث في أغلب قصائده ، شأن المتنبي في ذلك ، بل أكثر منه .

ونحن - وإن كنا لا ننكر أن له فخرا تقليديا (١٣٨) جاري فيه من تقدمه ، ولم يصفه بتلاوين مشاعره وانفسالاته - إلا أننا نجد أن فخره الحماسي الاصيل الفائق ، كان يطفئ على شعره ، فقد وجد لمادة فخره معينا لا ينضب ، وانطلق على لسانه ، ملونا بأطوار حياته ، وبمزاجه النفسي ، وبحياة البؤس والحرمان ، والهناء والسعادة ، والفضب والثورة ، والشعور بالأمل الزاهي والأمل الخائب ، ثم الزهو الذي يصل إلى حد الشعور بالعظمة الذاتية ، كما أسلفت ، وبالعظمة التاريخية (١٣٩) ، واعني بها رصيده العالي في النسب ، وامجاده الخالدة عبر التاريخ العربي الطويل ، ولهذا كله ، جاء الفخر على لسانه قويا ، مؤثرا ، تكاد نبرة الحماس لا تفارقه ، وصور الرجولة ، والعزة ، والأبء ، لا تفيب عنه ، فكان معين حماسته ، ومنبعها الاصيل ، وقد رأينا ذلك في المقدمة الحماسية في شعره ، وفي قصائده الحماسية المتكاملة ، كما رأينا ميثوثا في ثنايا قصيده ، طغيا على أكثر أغراض شعره .

فعندما يشعر بأنه سيصرف عن النقابة ، يتضخم عنده الشعور بالعظمة ، فيثور ويصرخ (١٣٥) فلئن صرفت ، فلست عن شرف العلى ومقاعد العظماء ، بالمصروف ولئن بقيت لكم ، فاني واحد أبدا يقوم منكم بالوف ثم تزداد عنده هذه الثورة ، عندما يصرف عن النقابة فعلا ، فيلج عليه شعور عنيف من مشاعر الكبرياء والأنفة ، والأبء ، ويهتف (١٣٦) :

ولي انف كاف الليث ، يابى شميمي للمدلة واستياي
إذا عد المناقب جاء بيستي
يجر ذيول أحساب ضواي
ويخاطب الخليفة ، ويتجرا عليه ، ويتحداه :
لئن أعلى بناءكم اصطناعي
فسوف يثل عرشكم انحرافي

وهذا الشعور العنيف ، الطافح بمعاني العظمة ، والتفوق ، يبدو للمتتبع ، وكأنه أشبه بمرض ، ظل يلزم الشريف الرضي ، فتتفجر به عواطفه ، ولا يستطيع منه فكاكا ، ولذلك رأيناه يعبر عنه ، عندما يقف أمام الكبار (١٣٧) الذين شعر من أعماقه ، أنهم هم السبب في اغتيال حلمه

(١٣٨) نفس المصدر : ٢٥١/١ ، ١٤٩/١ ، ٢٩٣/١ .
(١٣٩) ديوان الرضي - دار صادر : ١٩/١ ، ١١٥ ، ١٣٤ ، ٥٠٠/١ - ٥٠٤ .

(١٣٥) ديوان الرضي - دار صادر : ١٤/٢ .
(١٣٦) نفس المصدر : ١٦/٢ ، ٢٤٢/٢ وما بعدها .
(١٣٧) ديوان الرضي - دار صادر : ٤٢/٢ .